الراديكالي المستنير

مجموعة قصصية

محمد الفارس

نشر ذاتي

١ ـ أحلام هارب

ما أحلاكِ درجات سلم الحرية! ما أحلا كل درجة نحو نهايتي السعيدة! ما أحلاك عبق البر الآخر!

بالتأكيد أنا بقمة سعادتي الآن. تلك اللحظة لن تمحى أبدًا من ذاكرتي. بل أعتقد أنها ستستبد بكل ما سبقها: خيرًا وشرًا. لو سألني أحدهم ذات يوم، عن أسعد لحظات حياتي: فأنا الآن أعرف الإجابة يقينًا!

اليوم يومي الأخير هنا، على تلك الأرض البور، العطشى التي لا ترتوي مهما رويت، الكئيبة بتاريخها، الغبية بمكاتب بيروقراطيتها وطوابيرها، الموات في آنها ومستقبلها. اليوم يومي.. نعم..(يتنهد).. اليوم يومي، والساعة ساعتي، والنصر نصري الكبير.. (يتنهد ثانية كأنما ينفض طبقة سميكة من الغبار كست رئتيه).. نعم، أنا الفائز.. أنا المنتصر.. أنا "الهارب العظيم"!

هل تحسدني على تلك السعادة؟ معك كل الحق، أنا أيضًا أحسد نفسي. لكن لا بأس.

لقد انتصـرت أخيرًا. انتصـرت على نفسـي الضـعيفة أولًا؛ نفسـي التي جادلتني كثيرًا بالبقاء بعيدًا عن هذا السـلم لبقية العمر. انتصـرت على سـؤال ضـميري الملح عن مصـير أبي في وحدته بعد سفري عنه. أقنعه عقلي ببراعة، إذ قال له في نبرة حاسـمة: أنت تعلم جيدًا أكثر من غيرك، أن العلاقة بيننا شـبه مقطوعة مذ كنت صـبيًا، أنت أعلم بأننا لا نجيد الحديث سـويًا، أنت أدرى بأننا على العكس من بعضـنا فيما يخص كل شيء تقريبًا.. فليتزوج، أو ليحول صالة شقتنا لقهوة بلدي.. على كل حال: أصـحابه أكثر عددًا ممن هم بدائرة معارفي... انتصـرت أخيرًا.. انتصـرت على كل المحبِـطين والجهلاء المتآمرين، والتعساء المتمسكين بكلمات رنانة خالية المعنى رغم طنينها... انتصـرت على الماضـي اللعين؛ فوقفة النصـر تلك لا أحسبها مجيدة إلا لأني اعتبرت كل درجة سلم أدوسها -من سـلالم الحرية- ذكرى من عصـر بائد أمحقها بقدمي، أخلّصها من لعنتها، وأخلّص ذاكرتي منها.

لعن الله الصـاعدين خلفي على هذه الدرجات، إذ اسـتبطئوا خطواتي السـاحقة تلك. تعسًـا لهم! الآن أسـير صـاعدًا لأبلغ

نهايتي السعيدة، كأنني سليمان النبي الملك صاعدًا لعرشه، رغمًا عن حقد الجن وجهالة الإنس أجمعين.

الله.. يا له من كرسي وثير. أقسم لكم أنه لو كانت كسوته من الخيش، أو كانت حشوته من الشوك، لن أعدل عن رأيي في مدى روعته!

(أنفاس عميقة، وعين شاخصة لا ترى أي شيء حولها، وكأنه جثة، استأذنت منها روحها في الطواف حول العالم... سكون، بل سكينة، رسمها وجهُه ابتسامةً عريضة صادقة، واستجابت له عضلات وجهه كأنها الراحة لها من تعب عمر بأكمله!)

لا أعلم أي مصدر مجهول جعل هذه الخاطرة تجول برأسي الآن: آه من طغيان الطين على النور! لابد أن لها مصدر ما.. لكني بت أدرك مع الثواني المتسارعة الآن مرماها ومغزاها. لقد أثقل جسدي التعب في الأيام الأخيرة، وأنا لم أنتبه إلّا الآن، أني لم أنمْ ـتقريبًاـ الأيام القليلة السابقة، إذ كنت في تحدٍ مع الذات، ومع المكاتب البيروقراطية الرتيبة، أني سأفرّ في النهاية، مسافرًا على متن "طائرة نوح" العصرية.. طيري باسم الله مجراها ومرساها..

تقف في مرمى بصري إحدى المضيفات، تنبه على الجلوس بالمقاعد وربط الأحزمة ووشوك انطلاق الرحلة، رحلة "الهروب العظيم".. آهـــــ، المضـــيفات.. تلك الكائنات الأســـطورية التي حلمنا بها أيقاظًا ونياما. لكني الآن لا أهتم لأمرها ألبتة! عجبًا لأمرك أيها الطين! لا تطغى وتســـتبد إلا بالسلب!

(تســـتمر البســـمة على وجهه.. لكن جفناه مثقلان تعبًا؛ وقد تحولا محجريّ عينيه إلى ما يشـــبه ثقبين أســـودين يكادان يبتلعان عينيه من الســـهر، وكثرة التفكير.. يغفو في لحظات.. تغزو روحه عالم الأحلام)

- أبا شكري، انظر من الشباك، لماذا اصفر الجو هكذا؟
- كأنه ورقة من ورقات دكتور الرياضات العتيقة، ها؟!
- (ينفجران ضـــاحكين) هيا إلى مكاننا المعهود، وليكن الأنس عدو الجو المترب والغيوم.
- (يجلســـان على باب القطار، وأرجلهما مدلاة للخارج.. ينظر طويلًا للمقابر التي يمرون بها.. وفجأة.. اســـتفاق عقله أن أحمد شـــكري قد تُوفِيَ قبل عام.. ينظر بجواره

ليتأكد من أنه يحلم.. يبلغ تلك اللحظة الفاصـــلة بين الاستفاقة والمنام... يتساءل في نفسه)

- لماذا تبدو بعض الأحلام أكثر صـدقًا وواقعية وحياة من الواقع والحياة؟!
- (وكـأنمـا قرر أن يســـتبقي على حـالـة النوم.. ويرفض لحظـات الســـعـادة التي تغمره الآن في يقظتـه، إن هو اســـتيقظ.. تاركًا كل الســـعادة في مقابل حلم يجمعه بصديقه المغفور له)
- (يبدأ حلمًـا جديدًا: بين يديـه عجوز لا يقل عمره عن السبعين، لكنه يحن إليه حنينًا.. يسأله مستفسرًا)
- أبو شكري؟!
- عيب عليك يا أخي! كيف حالك يا ولد؟
- (يخوضـان في حديث لن يذكر منه شيئًا.. لكن يا للعجب إنها نفس عربة القطار.. لكن لا يلبث عقله هذه المرة أن تذكر أن أحمد شـــكري صـــديقه توفاه الله حين كان مجندًا في شـمال سـيناء.. ولا يلبث عقله أن يصـارحه بحقيقة نومه، وحقيقة موت صديقه، ويذكره أخيرًا بأنه

الآن على متن الرحلة المتجهة إلى دبي، والتي أقلعت من مطار القاهرة الواحدة بعد منتصف الليل)

(يفتح عينيه في ذات اللحظة التي يأتي فيها هذا الصوت شبه المسجل يبارك لهم سلامة الوصول للأراضي الإماراتية، متمنيًا لهم السلامة دائمًا، وممتنًا لاختيارهم شركة الطيران تلك) راحل أنا راحل.. لبلاد الأغراب...ومفارق الأحباب.... راحل....(إنها الأغنية الخاصة به وبصديقه، اعتادا غناءها كل جلسة لهما على باب القطار في أسفارهما اليومية للجامعة ذهابًا وإيابًا) ياه يا أبا شكري.. ما سر هذه الدموع على خدي؟ أي حلم كنت أحلمه الآن؟! لا أذكر سواك أنت يا أبا شكري.. رحمك الله وغفر لك وسامحك.

لكن عذرًا صديقي، عذرًا أخي، لن تمنعني سيرتك –العطرة طبعًا- أن أذكر "هروبي العظيم".. وأن أستعيد زهو المنتصر، وفرحة الناجي. أنا الآن أخطو للمرة الثانية على درج الحرية، أتحسسها تحت قدماي درجة تلو الدرجة.. لا أملي عينيّ بشيء يستحق الذكر، لكن هيهات! إن روحي الآن تشعر بضيق هذا العالم الرحب الواسع بسرورها.. بل

إن المجرة كلها لا تســـتوعب فرحتي إن هي أطلقت خارج زنزانة ضلوعي المصفحة..

الآن سـأركب أي سـيارة أجرة لشـقة مخصـصـة للمغتربين الذين يعملون لذات الشركة التي تعاقدت معها.. وغدًا بإذن الله، أو بعد الغد، أذهب لمقابلة العمل الأخيرة.. وأيًا ما كان من راتب ســيعرضــونه.. بل حتى لو رفضــوني؛ لا يهم.. حتى إن اضــطررت للمبيت على الرصــيف... أيًا كان.. أن أعيش بين غرباء يســتغلونني أو حتى يشــفقون عليّ إن انزلق مســـتقبلي المهني أي منزلق، أو حتى أن أمتهن منهم فأكرههم ويفيض كرهي لهم، لكل ذلك خيرًا لي أبدًا من أعيشــه بين بني جلدتي! باختصــار: أن أعيش كغريب متســـق مع غربتـه، خيرًا لي من العيش كغريب وســـط أقرباء!

(أتم المقابلة، وبالفعل ارتضـــي بأقل من المعروض عليه حين كان في بلده، واختار أن يســـكن مع غرباء بدلًا من بني جلدته، في شـقة متواضـعة تطل شـرفتها على وسـط المدينة وأبراجه التي تناطح السحاب؛ ومرت أيام..)

إن عملي كمهندس مدني، لهو بالأمر المرهق فعلًا، خاصة حين يكون الواحد منا بأول حياته المهنية. لكن هذا الجهد وهـذا الإرهـاق، هو شـــفـائي ودوائي، هو المطلوب والموصـــوف تحديدًا.. فلا يمنعني بعد إذ تركت بدارنا ما تركته كله، ولا تمزيق أغلب ما أخذته معي، أو كله.. لا يمنع ذلك من أن المشـــكلة تظل باقية بداخلي.. باقية بأم رأسي..

فذات ليلة وقفت فوق قمة البرج الذي نحن على وشـــك الانتهاء من تنفيذه وتسـليمه، تذكرت مرة كنت أصـطحب أمي –رحمة الله عليها- للكشـــف عليها عند أحد أطباء القاهرة الموصوفين لمرضـها العضـال، كان يعمل بمشـفى قريـب من كورنيش المعـادي، وإذ مررنـا بجوار البرج، ابتســـمت كطفلة صـــغيرة أهدا ها أحدهم دمية جديدة، وأشـــارت ناحية البرج، ونبهتني لأن أرى المنظر، بعدها خفتت البسمة قليلًا، وتبعها صمت يسير، وقالت ما معناه: أن طموحي يسـامق برج الجزيرة. تبسـمتُ واسـتعادت هي بسمتها. لتقول لي بصمتها هذا: أني مؤمنة بك وبطموحك!

تلك كانت أمي ســـامحها الله وغفر لها.... صـــدقني إن اعترفت لك، بأني تمنيت كثيرًا، أن يكون أبي من توفي، وأن تكون أمي هي الباقية على قيد الحياة.. ولكن على كل حال، أحمد الله كثيرًا الآن، أن أجلها قد قضـي.. فلربما.. بل غالبًا.. بل بصورة أكيدة، لم أكن لألوذ فارًا من "المستنقع المظلم" لو كانت باقية على قيد الحياة..

وحتى لا أنسى، وحتى لا أحن، أذكر نفسي بالسر الوجودي وراء هروبي العظيم.. إنها تلك الصـورة التي علقتها خلف رأسـي، في مكتبي، بمقر عملي.. صـورة لطائر أسـطوري يشـــبه التنين يلتهم الناس.. إنها الدولة التي مزقت حياتي كل ممزق، وقسمتها لفصول مسرحية، حيث إرادتي دائمًا كانت آخر الحاضرين! والناس بالصورة أيضًا.. إنهم على حزبين: الأول يفر ولا يقاوم.. والثاني يســـتغل ظل الطائر الظلام العملاق في الاحتماء من أشـــعة الشـــمس البهية البهيجة!

لكم عجبت بتلكم اللوحـة أول مـا وقع عليهـا نظري.. فلو كنـت أجيـد رســـم الخطوط المنحنيـة والملتويـة، بـدلًا من الخطوط الهندســية المســتقيمة والمنتظمة.. لكان توقيعي

ليكون عليها الآن! إنها ليســـت مجرد لوحة.. إنها نص دستوري.. بل وثيقة فوق دستورية غير منصوص عليها بأي ناحية.. ولكن وفقط، يعمل بها إيمانًا وعملًا!

(وبعد ســـنوات من التفوق المهني، ثم تهافت الشـــركات وسـبقاها المحموم خلف اسـمه وخبرته، وما تبع ذلك من ثراء مادي)

لدي مشـكلة كبيرة تؤرقني.. إنها أمي.. إن روحها لا تنفك تزورني في المنـام.. إنهـا تقول لي ذات الجملـة، في كـل ســـياق درامي لأحلامي الحزينـة.. إنهـا تقول لي بعد أن تذكرني –ويعلو وجهها تلكم البسمة ذاتها- بكل من نجاحي وطموحي، ووحـدتي وعزلتي، إنهـا تقول لي دائمًـا، ذات الجملة: اهرب من نفسك يا ولدي!

ليتني أفقد ذاكرتي ....

انتهت

٢٠١٦/٩/٦

٢- الراديكالى المستنير

إحدى الليالي الشتوية، يستيقظ من النوم في حدود الرابعة، إنه الأرق الذي أصابه مؤخرًا. صحا واجمًا عابس الوجه، لا يذكر الحلم الذي قاده لمثل هذا الانفعال البائس. لكنه بالتأكيد يدرك سينمائية خيال مخرج أحلامه، إنه بالتأكيد واحد من موضوعات أحلامه المعتادة: إما الموت الكاذب والدفن على قيد الحياة، وإما الشلل الرباعي، أو أي حادثة تقوده للعجز، أو أخيرًا: إحدى ذكرياته التي استحالت ذكريات ولن تعود أبدًا، على الأقل بحسبة عالم الأسباب.

أشعل لفافة من ماركة محلية الصنع، ذات مذاق ودخان سيئ للغاية، لكنه قد اعتاده كما اعتاد الحياة التعيسة من حوله، وكان هذا عن وعي منه، حتى أنه اعتاد الرد بـ: بالتأكيد لن يضرني الدخان أكثر من ماء المجرور الذي نشربه، أو أكثر من الطعام المسرطن الذي نأكله يوميًا، أو من دخان العوادم، أو من الأدوية القاتلة! حسنًا أنا أدخن، ولكننا جميعًا سنموت نفس الميتة إن عمرنا!

وكـأن التـدخين عنـده لـيس مـن بـاب "الكيـف" وإلا لمـا كـان قـد وجـد زاجـرًا عـن شـرب المخـدرات بـالمرة! إن التـدخين كـان فلسـفة بالنسـبة لـه، فقـد اعتـاد القـول أيضًـا: أجد في اللفافات طعم الحياة!

أشـعل اللفافـة بعـد اللفافـة، وجلـس صـامتًا، شـاهدًا فـي وجومـه علـى الصـراع الـدائر بـين بنـات أفكـاره. حتـى ليسـتطيع النـاظر إليـه أن يلحـظ هـذا الصـراع، بـل وإن تحلـى بالفراسـة ليسـتطيع أن يقـرأ أفكـاره بصـورة أفضـل مـن أفضـل مـنجم أو عـراف! إن الغرفـة حولـه مبعثـرة تمامًـا، وكـل شـيء مرتـب بعشـوائية غريبـة، حتـى أن أمـه اعتـادت أن تقـول لـه بـين الحـين والآخـر: يـا بنـي اخـرج مـن غرفـة إبلـيس هـذه! اخـرج للحيـاة معنـا، إننـا بشـر مثلك ولنا حقوق عليك!

الان تحديـدًا تـذكر هـذا الطلـب والجملـة المحفوظـة فتناجى مع نفسه بادئًا:

كيـف أفهـم أمـي أن كـل شـيء بهـذه الحيـاة خطـأ علـى خطـأ؟ كيـف أفهمهـا أنـي أعـرف نظـام غرفتـي أكثـر ممـا أعـرف ملامـح وجهـي؟ كيـف أفهمهـا أن شـابًا فـي الثانيـة

والثلاثين من عمره عزف عن الزواج، بل فقد الرغبة في المرأة ومشاركة الحياة مع آخر أيًا كان الآخر؟ كيف أفهمها أن غرائزي لم تعد كما كانت؟ والأدهى والأمر: كيف أفهمها أني أثقلت كاهلي بحمل أمة محمد؟! كيف لها أن تشفق عليّ وقتها؟ كيف أدعوها أمي وقتها؟!!

وأخذ الآخر بداخله يرد: فلماذا إذن تعتقد أنك على صواب طوال الوقت؟ هل لأنك قرأت أكثر أو تظن أنك تعلم أكثر؟ هل من وحي جاءك فحملك الأمانة فحملتها؟ ولماذا هذا العبوس إذن؟ ألا تراه نتيجة لا سببًا؟ نتيجة الفوضى القاتلة حولك في كل أركان غرفة إبليس تلك والنفي الاختياري من الحياة، ألا تسدي إلى نفسك معروفًا وتفكر لمرة أنك جاهل؟! وبالمناسبة، أتحمل هم أمة محمد ولا تحمل هم نفسك ولو لأيام؟ أين صلاتك وصيامك؟ أين قراءة القرآن وتدبره؟ هل تذكر آخر مرة فعلت هذا؟ غرة رمضان السابق؟! إنك لا تجيد غير الكلام والتفكير والعبوس والوجوم!

لقد اعتاد رد هذا الآخر أيضًا، لكنه كان يحترم هذا الآخر بداخله، حتى سماه: ضميري اليقظ. فلقد كان يرى أن أهم شيء في الوجود هو تسمية كل شيء باسمه الذي وضع له، كما تلقاه أبيه آدم من رب العالمين أول الأمر.

آه.. تسمية الأشياء بأسمائها! (غلبه الأخر مرة أخرى):

لماذا لا نبدأ من جديد مرة أخرى، وعساها الأخيرة؟ لماذا لا نذكر الموت فنتعظ؟ لماذا لا تبدأ بنفسك؟!

فجادل ضميره: أنت لم تفهمني أنت الأخر حتى الأن! إن ما أريده تحديدًا هو العدل، الحد الأدنى من العدل الذي تصير معه الحياة ممكنة، قابلة للعيش. لقد تعبت من قوة نفسي عليّ لا أكذبك. ولكني تعبت أكثر من كل ما هو حولي. تعبت النفاق المجتمعي، كرهت جميع أشكال حلقات التفاهة، مللت العيش وسط مجتمع يعبد ذاته، سئمت أن أعيش حياة غيري، عييت.. أعياني طول الطريق، وأرهقتني كثرة المزالق، واستوحشت الصواب!

فرد عليه ضميره اليقظ: مالك تتحدث بلساني الآن؟!

فحسم أمره أخيرًا وقرر أن يفعل شيئًا ما. شيء يبدأ به من جديد إن كانت ثمة بدايات جديدة؛ أو بالأحرى شيء ينهي به الملهاة السوداء في حياته كما اعتاد تسميتها، وسماها أيضًا بالفصل الروائي الممل الذي لا ينتهي.

لكن ماذا عساي فاعل؟ إن غيرت نفسي فالدنيا باقية على حالها! والناس من حولي لا يسمعون لي، بل يعاملونني كأني المجنون بينهم، كأنهم هم الأصحاء وأنا الأجرب. رباه ألهمني قد تقطعت بي السبل وضاقت عليّ شعاب الحياة فوق ضيقها ضيقًا.

يشعل آخر لفافة لديه، وينام، ينام متمنيًا حلمًا جميلًا يسعفه في فوضى حياته، وغرفته، وضبابية مستقبله.

تمر ثلاث ساعات، يصحو على نغمة هاتفه، يا للبؤس إنه إشعار تافه بتعليق تافه على صورة تافهة قرر أحدهم أن يتحف العالم فيها بغباوة ثغره الأصفر! ولكن وقد صحا على كل حال، قرر أن يفتح نافذته على العالم الأزرق. وبعد العديد من المنشورات الخالية من المعني

استوقفه فيديو نشره أحد أصدقائه المثقفون بعنوان: رحلة بداخل عقل راديكالي سابق. شغل الفيديو ولم يلبث إلا بعض دقائق حتى تأفف من المقدم. إنه يقدم نفسه على أنه جهادي راديكالي سابق يتحدث عن مغامراته مع مفاهيم التسامح والرحمة والمغفرة. لقد أزعجه الفيديو لدرجة ثورت أعصابه. لكنه وللمرة الأولى في حياته يحول ثورته لعمل بناء لا هدم ونفي فقد قرر في بادئ الأمر أن يحرر فيديو لنفسه يرد به على السماجة التي رآها في صاحب الفيديو سالف الذكر. لكنه ما لبث أن حور الفكرة لكن لم يعزف عنها بالكلية. بل سأل نفسه وتساءل:

لماذا لا أحرر فيديو أنا الآخر ليسمعني العالم كله، ليسمعني كل الناس، لأقول كل ما يحلو لي كما يفعل غيري؟ فماذا ينقصني عن هذا الرجل؟ وما الذي لديه وليس لدي؟ بالتأكيد أنا إنسان مؤهل يحوز كل المؤهلات المطلوبة ليتكلم. إن الناس تتكلم طوال الوقت فيما لا تعلم ويصمتون عندما يأتي الكلام على ذكر ما يعلمونه جميعًا، فلماذا لا أذكرهم بما نعلمه

كلنـــا؟ حســنًا ســأذكرهم بأبجـديات حيــاتهم لمــرة أخيــرة. فيـديو واحـد يكفـي لأقـول كـل مـا لـدي، فلـيكن دسـمًا أو سمًا لا أبالي.

انتظـر قلـيلًا أي مشـورة مـن الآخـر بداخلـه، فلـم تبـدر أي إشارة عن ضميره اليقظ..

حســنًا مـــا ينقصــني الآن؟ أولا كـــاميرا للتصـــوير. حســنًا أعتقـــد أن كـــاميرا هـــاتفي الخلفيـــة تفـــي بـــالغرض. إذا فلأجربها ولأضبط مكانها.

أدار مكتبــه ليواجــه الحــائط، وضــع الهــاتف علــى جانبــه مســندًا شاشــته لمجلــد كبيــر، ضــغط علــى الــزر ليبــدأ التســجيل وتمــتم بكلمــات: تجربــة، اختبــار، تجربــة، بســم الله الــرحمن الــرحيم، ثـم أخـذ يلـوح بيديـه ليـرى انفعالاتـه مسبقًا ويحـاول تأطيرهـا فـي إطـار الكـاميرا حتـى لا يخـرج ولا يبعـد عنــه، وحتــى يكـون التصـوير فـي أصـدق صـورة ممكنــة لإنســان عــادي يــتكلم. يــا للمفارقــة كـم يبـذل الواحـد منــا وينفـق لمجـرد أن يبـدو إنســانًا عاديًــا، وبــالرغم مــن ذلــك ينفــق آخـرون المــال والعمــر فــي محاولــة تصــديق أنفسهم أنهم غير اعتياديين!

شاهد تجربته وأعجبه كل شيء تقريبًا، وشعر بأنها أحد ساعات عمره القليلة التي يوافقه فيها القدر ويوافيه الحظ. لكن كانت له ملحوظة واحدة، حول الخلفية، وهو غير مهتم بالأساس ببرامج تعديل الصور والفيديو، بل يخاف منها ويمقتها في الوقت نفسه. ترى أي خلفية تناسب ما سيود قوله؟ وما الذي يود قوله.

لا زال ضميره اليقظ متواريًا يشاهد لا في استنكار ولا استحسان، بل في صمت من ذهله طريف.

إنه اللون الأسود هو الأنسب بين كل الألوان. هكذا قال في نفسه، لكن من العسير جدًا وجود لوحة بهذا اللون، وكذلك من العسير تلوين أو بالأدق تسويد لوحة بيضاء! ما العمل؟ فكر. ثم اهتدى في طريقه للمطبخ لتحضير كوب نعناع، حين عثر بسلة القمامة بكيسها الأسود! نسي أمر النعناع، فعلى الفور توجه للمطبخ لإحضار كيس جديد، قطعه بحرفية أبهرته هو نفسه. ثم لصقه على الحائط أمام المكتب ليكون هو الخلفية. جرب التصوير مرة أخرى فوجد أن من الأفضل أن

يعيد لصقه بطريقة أكثر احترافية، ودهش جدًا حين وجد نفسه بارعًا بأشياء يجربها للمرة الأولى في عمره الذي بلغ عمر "جيلًا" بأكمله. (لعلنا نذكر أنه بالثانية والثلاثين من عمره).

سأل نفسه: ماذا أقول الآن؟

وأخيرًا نطق الآخر: ماذا تريد أن تقول؟

اتفقا أخيرًا أن يكون على سجيته ليخرج من موضوع لآخر دون فواصل ودون افتعال بل ليكون كل شيء يقال أو يفعل عادي أو في أحسن الظروف صادق. لكن ماذا عن العنوان؟ ماذا عن العنوان؟ ردد ضميره.

فنجال قهوة هو الحل.

حضرة قهوته، ومع أول رشفة، استلهم الاسم: استفاقة.. حسنًا سيكون هذا الفيديو بعنوان استفاقة.

راجع كل شيء، كل شيء معد وفي مكانه المطلوب. حسنًا لنضغط زر التسجيل. فخرج بيانه المصور والمسجل كالتالي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كنت أود أن أبدأ كلامي بمثل ما قال نيتشه: أنا مجرد مهرج ولا رغبة لي مطلقًا أن أكون قديسًا. لست بقديس لكني لست بمهرج لأني لست مثلكم أيها المهرجون.

هل تأذيتم من كلماتي؟ رغم أني لم أبدأ حسابكم بعد. فلتعتبروني شهيدًا عليكم في هذه الدنيا، ويوم القيامة سأخبر الله حين يحاسبني بكل جرائمكم التي ارتكبتموها في حقي. وحق الكثيرين من غيري ومن أمثالي.

سأخبره أني مت أعزب، لأن الجنون قد مس سائر القوم، فتغالوا في المهور وفي تكاليف الزواج حد الجنون، كلا، كلا لستم بمجانين، بل أنتم مهرجون! كلا، قسمًا لأخبرن ربي بما فعلتم. أين العقل أن يبلغ عمر الرجل منا ثلث قرن ولا يمس امرأة تحل له؟!

سأشهد عليكم بأنكم مشركون، أجل أشركتم أنفسكم بأنفسكم مع الله في كل شيء. تَنكحون وتُنكحون مرضاة لأنفسكم، لبشر أمثالكم. تتعلمون وتعملون

مرضاة لأنفسكم، لبشر أمثالكم، فانتكستم وانتكس تعليمكم. فما الفائدة من طب بلا طب، وهندسة بلا هندسة، وصيدلة لا تفتح إلا محل أدوية وحساب بالبنك؟! وأي.. وأي.. وأي.. ما فائدة كلية التربية إذا لم يكن لديكم الوقت لتربية أنفسكم وعيالكم؟!

إنكم لتعملون لأنفسكم ولبطونكم ومصارف شهواتكم اليوم كله، وتسجدون لله في رياء متمتمين بلغة غير مفهومة، فحولتم الصلاة من صلة بين العبد وربه وطهر وطهارة وتطهير وتطهر لطقس وثني، أشبه ما يكون بنداء أحدهم اللات أو النار أو الشمس! وبقية أعماركم في الدنيا تنفق في الدنيا وللدنيا.

بالله عليكم صارحوا أنفسكم: متى كانت المرة الأخيرة التي تفقدتم فيها أبناءكم، وسألتم بم يفكرون ويشعرون؟ علكم وقتها تحسون بما يحسون وتشكون ما يشكون، علكم ترحمون..

أيها المهرجون أنتم ومشايخكم وعلمائكم الواقفين دعاة على باب جهنم، يسدون باب الجنة بمؤخراتهم

السمينة ويوردونكم النار من فرجة ضيقة بين كروشهم.

أيها المهرجون تسجدون لله، وتعبدون حكامكم؟! لعل شيوخكم في التهريج قدوتكم! قالوا لكم لا تخرجوا على الإمام الشرعي، وما هو بإمام ولا هو مقيم للشرع ولا منتسب له! أخبروكم إن ثرتم فأنتم خوارج، ولا هم ولا أنتم تدرون عن الخروج والخوارج سطرًا في كتاب من ألف مجلد! إنكم عزل فما سبيلكم للخروج؟! لقد فتنتكم كروشهم وحياتهم وزوجاتهم فسرتم خلفهم تفكرون ببطون خاوية، وعقول زاهدة إلا في لقيمات. أين علماؤكم؟! وهل لكم من علماء تقدرونهم قدرهم؟! إن أخبروكم أن واحدًا حصّل نوبل في الكيمياء فستصدقون ولا تسألوا عن مخترعه! وإن أخبروكم أنه حصلها في الطب فلن تسألوا عما أنجزه؟ لكن كلنا سنفتخر به ونقدره، لا لأنه اخترع أو أنجز أو حتى طار حافي القدمين، بل سنكرم جميعًا -شعبًا وحكومة- تكريمه، ونشكر من شكره، وعند الله تجتمع الخصوم! أين علماؤكم المعلمون المربون؟! دعوني أخبركم:

واحد يعمل سائق تكتك وآخر شيال وآخر سائس في جراش، وأخيرًا صبي في قهوة بلدي!! وهناك هذا الصنف مصاص الدماء، ومنهم أنواع تمتاز بانتهاك الحرمات وتعبد الشهوات!

إن المجتمعات من قبلكم كانت توسط أحبارهم ورهبانهم بينهم وبين الله حتى اتخذوهم أندادًا من دون الله، فهم وحدهم يفهمون ويفسرون مراد الله ورضاه؛ أما أنتم فتركتم المصاحف في التابلوهات أو في المكتبة فوق الشاشات وعلقتم السجاد على الحائط، ونزعتم عنكم لباس التقوى الذي هو خير، ولبستم بين صوف شاه وفرو ذيب وأخذتم تنطحون وتلتهمون، وتركتم الحياة تلتهم الجميع من خلفكم، ولم تلحظوا أبدًا إنما هي بدأت بكم....

أيها المهرجون إن الله أكرمكم وجعلكم تمشون على قدمين، بناصية منتصبة، وقامة مرفوعة، فاسجدوا لله شكرًا، ولا تسجدوا لغيره من خلقه.

وقتها سيحلو لي أن أختم كلامي بالسلام.. أما الآن فما عاد عندي لكم لا سلام ولا كلام

فقط ألعن كل رئيس، رؤوس الدول، ورؤوس الأديان، ورؤوس الحكومات، ورؤوس الجامعات، ورؤوس الشركات.. إلخ

وألعن كل مرؤوس اختار أو شارك في الاختيار بصمته عن رئيس مهرج ليلهو ويتسلى بالتهريج منه وعنه.

وأخيرًا داس زر التسجيل مرة أخرى لإيقاف التصوير. راجع الفيديو سريعًا، ولم يهتم بأي شيء، حتى بحرارة وجهه والدماء التي فورت عروقه لهيبًا. ومباشرة أخرج كارت الذاكرة، أوصله بالحاسب، وفي دقائق كان الفيديو على موقع يوتيوب، وبعدها مباشرة على صفحته على الفيس بوك. ولما أخذ ساعة ينتظر ولم تبلغ المشاهدات عشرين مشاهدة، قرر عمل أي شيء، فتبرع بوقته ومجهوده ونزل يحضر الفطور المعتاد له ولأبويه وإخوته، نزل السلم وباله مشغول بردود فعل الناس على ما قاله، والآن جاء دور ضميره يصرخ في وجهه: ألا تذكر أنك قرأت من قبل حديثًا معناه من قال هلك الناس فهو أهلكهم؟! فألجم صوت ضميره بصوت خرج خارج حدود جسده وروحه: بلى

أذكر قصة رجل قال الله تعالى لجبريل الأمين ابدأ به لأنه لم يغضب لما يغضبني! ثم عاد صوت ضميره مرة أخرى: وماذا الآن؟! وقبل أن يفكر بالإجابة رأى مشهد مركب من ملائكة تحوطه من كل اتجاه، وشاحنة كبيرة قادمة كأنها قادمة لاغتياله.

تزامن خبر وفاته بالفيديو الذي نشره على مواقع التواصل، فكان كأنما كان مجلس عزاءه هو التواصل الاجتماعي، ووصل الفيديو لخمسة ملايين مشاهدة، وذيع اسمه في أكثر من برنامج تلفزيوني همهم ال "ttop trending" وفي كل مرة ينشر كلامه أو يذاع اسمه كان يقترن بشيء من اللمز والغمز.

ولسوء حظه تزامن ثالث أيام عزائه بمباريات الدور الأول من كأس العالم، فنسيه الناس جميعًا كأنه لم يكن موجود اللهم في آخر قائمة ال "trend" الطويلة التي استولى عليها: تصفيفة شعر فلان، وزوجة فلان، وقرينة فلان، ومشجعات ألمانيا والبرازيل، .... إلخ ... إلخ.

انتهت ٢٠١٦/١٢/١٠

٣- أمل

حين تُوفي أبي رحمه الله سألت نفسي هذا السؤال مرارًا وتكرارًا: رباه ما الحكمة وراء كل هذا؟ والأهم: لماذا الآن؟ لابد أن لك حكمة، لكني لا أفهمها على وجه التحديد، بل لم ألمس أي وجه من وجوهها المتعددة حتى! مشيت بالعمر ورافقني السؤال دون إجابة. كنت أنساه أيامًا، أسابيعًا، شهورًا بأكملها، لكنه لما يبرح يشغل ذلك المكان الخفي بعقلي، ويقفز منه على طريقة "ماكس باين"، يتأرجح أمام عيني بالحركة البطيئة فأكاد أراه، ولا أرى من واقعي شيئًا... بلا إجابة.

ظل الوضع على ما هو عليه لسنوات طوال حتى بلغت الأربعين وفاجأتني هذه القصة القصيرة جدًا التي عشتها بنفسي، والتي سأرويها لكم. وإن كنت لا أعلم من بطل القصة على وجه التحديد، هل هي "أمل" نفسها أم "حياة"؟!

لم أكن أعرف أي شيء عن "أمل" بتاتًا قبل أن تدخل شارعنا عروسًا في ليلة زفافها على أحد جيراننا، أو كما أراه أنا أحد أبناء الجيران. وحتى بعد الزواج لم أعرف عنها أي شيء تقريبًا. فقط حديثي القليل مع والدتي الذي يجري أسبوعيًا، حين أعود من عملي، بدافع الحديث المجرد ذاته، وبغض

النظر تمامًا عن موضوعه. هي جميلة وملامحها توحي بالطفولة رغم سنها فكأن تكشيرتها العفوية تلك براءة صافية، براءة من لم يراهق في حياته ولو لثانية واحدة. هي بنت فلان ومن عائلة علان، وبعض تفاصيل لا أهتم بها وحسب، بل أحسب نفسي مضحيًا بوقتي وبمساحة ما في عقلي لمجرد سماعها، لكن الأهم هو بر الأم على كل حال. وكما نقول: "المهم" على كل ما ليس بمهم في الحقيقة، فقد كان المهم هذه المرة هو ثمن المهر وطريقة الخطبة وكيف ساعدَتْ أمي في "التوفيق بين رأسين في الحلال".. إلخ.

أكاد أعصر رأسي عصرًا فلا أجد لها في ذكرياتي إلا ملامحها التي تأتي كومضة خاطفة ثم تتلاشي، وأنها كانت تساعد زوجها في تدبير أمور المنزل، وكذلك تساعد عائلته فيما يخص الأرض والفلاحة بأنشطتها المتعددة الغنية. وبقية من كلام سمعتها وقت الدفن عن أن لها الجنة أن كانت خير عون لزوجها في عسره، ومسرة له في يسره.. إلخ

والذكرى الأخيرة والتي ربما تكون هي الذكرى الحقيقة الوحيدة لي عنها، هي ذكرى زيارتنا أنا وزوجي وأمي لهم في دارهم، لنقوم بـ "الواجب" الاجتماعي والتقليدي في قريتنا.

هذا التقليد الذي ربطني بالريف والقرية مهما بعدت عنه ومهما لاحت لي الفرص، فلقد اخترت عن وعي أن أربي أبنائي هنا.. "المهم" و "حتى لا أفوتكم" في الحديث ذهبنا ثلاثتنا نبارك مولودها الأول "حياة". لطالما كان للأطفال معي -ومع غيري فيما أعتقد- فعل السحر، لكن هذه الطفلة بالتحديد بها شيء ما مختلف حقًا، إن لها نظرة ترهف القلب، لا سحر في عينيها على وجه التحديد، لكن النظرة نفسها.. عذرًا يخونني البيان -هنا- خيانة عظيمة، فلا أدري كيف أعبر لكم عن السر في هذه النظرة، ولكن فيما يبدو أنها أخذت كل براءة "أمل" وزادت عليها. قبلناها ثلاثتنا، وضعنا مظاريف "الواجب" على غطائها، باركنا، سلمنا، غادرنا، ولم يغادرني أثر تلك النظرة حتى هذه اللحظة.

لا تتحير ولا تظنني مبالغًا حين أصدقك القول في أمر تلك النظرة الساحرة، واستمرار مفعولها لتوي هذا! وعلى كل حال فالمدة لا تبعدني عن رؤيتها بلحظة ما أسرتني أسبوع واحد. فلقد ماتت "أمل" بعد أسبوع واحد. واليوم شيعنا جنازتها. أخذها زوجها لعيادة الطبيب الذي ولّدها قيصريًا، لـ "فك السلك"، أخذها معه على دراجته النارية، ثم حدثت الفاجعة،

ولا أعلم من كان المخطئ في الحادث، أهو الزوج، "الطائر" من الفرحة بزوجه وابنته، أم سائق الشاحنة الكبيرة ذات الحواية، ولا أدري أي أهمية لهذا في الحقيقة! حصل الحادث، وانتهى الأمر. ذهب الزوج للمشفى بجروح ردية وكسور تفتتية متعددة في جانبه الأيمن بكامله، وماتت "أمل". ماتت "أمل" بكل بساطة كما كانت بساطتها في "الحياة". ماتت "أمل" محتضنة "حياة". ماتت "أمل" في التو والحال.

لماذا ماتت "أمل"؟ ولماذا عاشت "حياة" التي لم يصبها خدش واحد؟ رباه لابد أن لك حكمة! رباه يا رباه لماذا ولدتها قيصريًا؟ ولماذا الآن بالتحديد؟!

الآن يقفز السؤال ذاته مرة أخرى: لماذا مات أبي في هذه اللحظة تحديدًا؟ لقد وهبتني "أمل" و "حياة" الوجه الذي أحتاجه من فهم الحكمة. على الأقل لن يعاودني السؤال ذاته ثانيًا بعد عقدين من الزمان اصطحبنا بهما...

انتهت ٢٠١٧/٥/١٠

٤- الحمار الخاص

"وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم"

تبدأ قصتنا بعماد الشاب البسيط الذي بقي من القلة البشرية التي يمكن وصفها براحة تامة بأنهم "عاديون". عاديون بمعنى أنهم لا يملكون أوجه تفرد، وهم لا يظنون في نفوسهم هذا الظن. هو عادي في كل شيء، فلم ينل أي درجات علمية، إلا أنه وعلى حد تعبيره "يعرف فك الخط"، وهو عادي في كل شيء آخر حتى في ملامح بشرته وشكل جسده ولون بشرته. كان له في دار الأسرة غرفة خاصة في الدور الثاني، تسمى "المقعد". وما له صديق في خلوته في الصحراء إلا حماره "صابر". هذا الحمار الذي ركبه عماد مسافة لا تقل عن ١٠ أميال، هي المسافة بين قرية عماد والمدينة الصناعية القريبة منها. عماد أجير يعمل كخفير حراسة على أرض المصنع الجديد لصاحبه رجل الأعمال المشهور بالقرية والمركز بل وفي طول البلاد وعرضها: أكرم عزوز. استأجر عماد عن طريق جار له في القرية اسمه الأستاذ هشام، ولم

يكن ترشـــيحه جزافًا، بل لعدة أســـباب منها قربه ودرايته بالمكان، وثانيًا لأنه تعود الوحدة فهو وحيد أبويه المتوفيين، وأخيرًا لأنه معروفة ببســاطته الشــديدة وحســن طويته مما يعني تهاونه في الأمور المادية.

كما قلنا ركب عماد حماره الذي ورثه عن أبيه ضمن ما ورث من بهـائم، ولأن أبـاه لم يكن ملاك، فقـد توقف عمـاد عن اســتئجار الأرض، وباع باق المواشـــي إلا حماره الذي كان يصـــحبه في حله وترحاله؛ ركب عماد حماره وتوجه لأرض المصـنع الصـحراوية، والتي لحسـن الحظ ينبت بها عشـب ومرعى طبيعي، فالأرض بها عينا مياه مما يضـاعف قيمتها. وأقام عماد هناك في العراء لمدة عامين يأتيه طعامه عن طريق الخفر على بقعة الأرض المجاورة تارة، وعن طريق عمال البناء والتشـييد بالمصـنع ذاته تارة أخرى. أما حماره فكما قلنا فكان كما يقول عماد "رزقه على خالقه" حرفيًا، يأكل ويشرب من جوار العيون.

بقي الحال حولًا بكامله، إلى أن افتتح المصـــنع، وأمضـــى الأســـتاذ هشـــام وعده بتعيين عماد ضـــمن طاقم الصـــيانة

بالمصنع، الأمر الذي وجد عماد نفسه يجيده لكن لا يتميز به رغم كل شـــيء. وبقي الحمـار وحيـدًا طوال اليوم، يـأنس بصـــاحبه ليلًا، ولا مانع من بعض "المشـــاوير" إلى مركز المدينة الصـــناعية حيث توجد المطاعم ودكاكين الخدمات المختلفة والورش الخدمية. ولكن العمل أورث عماد طابعًا جديدًا، هو طابع "الأعمال" نفســـه (ليس العمل كما يتبادر للزهن هو المقصـــود، وإنما العمل الذي هو ترجمة لكلمة "بيزنس") ففكر كيف يزيـد من دخلـه زيـادة أخرى على الزيادة التي حلت على راتبه منذ صار فنيًا بالمصنع؟ فاهتدى لفكرة مفادها أن يؤجر الحمار لصاحب المصنع، وإن لم تكن الفكرة بنت فكر عماد مباشـــرة! فقد بدت له الفكرة مقبولة حين تهكم أحدهم من ســـمنة حماره وقلة منفعته، حتى قال بعض الخفر المجاور له: حمارك أســـمن منك، فهو حمار عاطل، فإما أن تؤجره لنا وإما تبيعه. في النهاية لم يهن عليه بيعه، ومنها ولدت فكرة تأجيره للمصـنع. ولكن طلبًا كهذا إن قدم لصـــاحب المصـــنع مباشـــرة فقد يكون مبررًا لطرد عماد نفســـه! لذا لجأ إلى حيلة، وهي أن يشـــرك حماره في العمل

تطوعًا لمدة أسبوع، ثم يطالب الأستاذ هشام مدير الشؤون المالية أجرة الحمار لقاء عمله هذا.

وبدأ التنفيذ بالفعل كان عماد يستعمله في نقل المخلفات ليلًا، بحجة أنه يهتم بنظافة المكان، وفي نهاية الأسبوع بالفعل لم يطالب عماد بأجر له، وإنما طالب بأجرة الحمار، وبتعيين عامل يشترط فيه الأمانة والمفهومية أن يتولى المهمة. وبالفعل وافق الأستاذ هشام على إدراج أجرة استخدام واحد حمار في نقل النفايات غير الصالحة لإعادة التدوير.

وهنا تبدأ قصتنا مع الحمار ذاته؛ هي في الحقيقة لا تختلف ـ بدايتها ـ عن قصة عماد كثيرًا، وما نرى من داع لإعادة سردها، فلا نشك ولا نقلل من ذكاء قارئنا الصبور. وبعد اجتياز المقدمة عن رحلة استمرت نهارًا بطوله في قطع مسافة عشرة اميال في جو صعب أنهكت قواه، وكذا اجتياز أنه عاش على العشب المحيط بأحد العينين ـالعين الصغيرة في الواقع ـ ومائها طوال فترة إنشاء المصنع. يكون قد بقي لنا أن نقص على القارئ ابتداءً من أسبوع العمل الأول.

صنع له عماد من أربع شكائر ما يشبه الخرج، ليضعه على ظهره، ويحمله حمولته. وأخذ يقوده يوميًا مرة واحدة ذهابًا وإيابًا إلى مكب قمامة ونفايات لا يبعد ساعة عن المصنع. كان مشوار الذهاب شاقًا في بداية الأسبوع، لكن بنهايته تعود الحمار -صابر- المشوار، ومشوار الإياب كان سهلًا على كل حال إذ بقي عماد وحده كحمولة العودة. وقد توافقت -بمصادفة ما- نهاية الأسبوع مع يوم العيد الرسمي لكل موظف وهو يوم قبض الراتب. فما كان من عماد إلا أن أستأذن الأستاذ هشام مدير الماليات في خلوة يخبره فيها بأمر الحمار وما يتحمله دون عائد مادي، وأنه باستئجار الحمار يكون قد صاد عصفورين بحجر واحد، فما أبخس أجرة الحمار مقارنة بعربة نقل، وما أكثر المشاكل التي تسببها النفايات. وبالطبع أعجبت الأستاذ هشام الفكرة، وإن "فاصل" في الأجرة فصالًا لابد منه.

عين حامد أحد عمال النظافة كسائس للحمار، يحمله حمولة النفايات، ويركب فوقها مدليًا كلتا رجليه من جهة واحدة، الأمر الذي عانى منه حمارنا صابر أشد معاناة في البداية، ولكن كعادة سائر الأمم آناسي وحيوانات وحتى الطيور،

بالتعود يصـــير كل شـــيء ممكن ومقبول وفي نهاية الأمر: عادي. وقد انقضـــى الشـــهر الأول على ذات الحال، رحلة الذهاب بحمولة حامد الزائدة، ورحلة الإياب بحمولة حامد وحده. ولا يفوتنا أن نقف هنا مرتين: الأولى: أن حامد لم يستسغ صابر ولو لحظة واحدة، بل كان يسبه بسبب من وجهه الأسود: "يا وجه الشؤم.. يا لعين"؛ وأن عماد نسي حماره تمامًا إلا يومًا واحدًا من كل شـــهر هو يوم قبض الراتب.

وبعد شـــهور قليلة زادت قدرة خط الإنتاج، إذ زادت المبيعات والتوزيع في كافة أنحاء الجمهورية من منتج عزوز بك، وهو الأمر الذي يعني في التحليل الأخير زيادة المخلفات والنفايات الغير قابلة للاســـتهلاك أو إعادة التدوير، فما كان من حامد المســـؤول عن تنظيفها إلا أن ضـــاعف الرحلة رحلتين، ولكن ولســـوء حظ الحمار عين عزوز باشـــا العديد من العمال ليعملوا في "وردية" ثانية. فما كان إلا أن عين شـــاكر على الحمار في الوردية الثانية. وبالمناســـبة فقد اســـتأجر "الباشـــا" مســـكنًا لكل العاملين في قلب المدينة الصـــناعية، مما أدى لنســـيان صـــابر تمامًا وإســـقاطه من

حســـابات عماد إلا فيما يخص الأجرة الشـــهرية. وبتحول الوردية ورديتان صـــارت الرحلتين ثلاث رحلات، إذ يخف العمل قليلًا في الوردية الثانية ويقل الإنتاج قليلًا.

عاش حمارنا صـابر منهك القوى تمامًا مسـتنفذ ولم يبق له راحة يعرف طعمها إلا يوم الجمعة. ولكن حدثت في القصـــة بعض تعقيدات إذ اشترى "البيه" أرضًا مجاورة ليستخدمها في الزراعة، وضمها على أرض المصنع وسورها بسور من دبش أبيض. فما كان من الخفير-الذي حل محل عماد- إلا أن نفذ ما طلب إليه من الإتيان بأسرته كاملة، بل وببعض أقاربه أيضًا للنهوض بفلاحة الأرض. مما زاد الطين بلة لحمارنا. إذ صـــار ينهض وحده بذفايات المصـــنع وفلاحة الأرض في المواســـم المختلفة. ولكن وكما قلنا بقي يوم الجمعة، الذي لحسن الحظ لم تكن به فلاحة أيضًا.

ولكن انتقال الأسـرة يعني انتقال الأطفال أيضًـا، وهم كأهلهم بلا تعليم أو مدارس، لذا لم يبق لهم باب تسلية إلا حمارنا في أيام الجمعة. الأمر الذي بلغ بالحمار حد التفكير في الهرب ولو بالانتحار، ولكنه كان صـــاحب إرادة وعزيمة، فقرر في

وسـط الهوان والعذاب الذي يعيشـه أن يتعلم بعضًـا من لغة البشـر! وما يمنع؟ وبقي الحال بين حمولات زائدة وأجرة شهرية وأيام جمع تخلوا من أي راحة ودراسة وتعلم وتفكير وتخطيط، وتحير لمن يشكو حاله؟ هل لعماد الذي أجره -وهل من مبالغة إن قال صـابر: باعني؟ بثمن بخس؟ أو للأسـتاذ هشام فيفعل كما فعل عماد حين خطط؟ أم للباشا الكبير نفسه؟ ولكنه لم يشـعر بالظلم وقع عليه من أحد مثلما شـعر به من حامد مباشـرة. فهو أول من جار عليه، وحمله فوق طاقته، ولم يفهم، ولم يقدر طاعته وحسـن طويته، بل زاد على معاناته السـب والهوان والضـرب المبرح. فقرر بأخرة أن يواجه حامد وشـاكر. وكانت اللحظة الحاسـمة وقت تسـليم "الوردية" وتسلمها بين حامد وشاكر.

وقف الحمار كخيل يتأهب للقتال برفع مقدمتيه والوقوف على الخلفيتين، وتمنى لو تعلم أيضًا لغة الأحصنة فيصهل مثلها، ولكن كان ما كان. وقف على قدمين فشـد لجامه من يد حامد بقوة، شـدها وشـد حامد معه فألقاه على الأرض. فاقترب بوجهه من وجه حامد الذي سـرعان ما كال له سـبابًا ولعنه

لعنًا. حدق بعينيه في عينيه وانتظر هنيهة ثم قال في صـــوت متقطع أجش:

لماذا تشتمني هكذا وأنت الظالم الجائر معدوم القلب والضمير خلو من الرحمة؟

= (انصـــعق كلًا من حامد وشـــاكر) وقال حامد: مم.. ما.. مـــــــــــ...ـــــــــــــــا...ذا؟ ماذا قلت؟ هل تتكلم؟!

فسرعان ما علق شاكر المنبهر انبهارًا جاوز الحد: يا الله.. يا لها من معجزة!

_ فأكمل صـــابر: أفهماني ما ذنبي وماذا اقترفت حتى أهان وأحتمل كل هذا؟ ألا ترون أن حياتي تعيســـة بما يكفي؟ حتى لحمار!!

= فقال حامد وقد وقف على قدميه وزايلته صـــدمته: لأنك حمار! ولأن كلنا "عبد المأمور"!

_ فسأل صابر: لم أفهم! بالله عليك لماذا؟

= فرد حامد: قلت.. لأنك حمار!

_ ألأني حمار لم أفهم أم ماذا تقصد؟!

= ولهذا أيضًا...

انتهت.

٢٠١٧/٥/١٩

٥- فيما ندعي

في "محطة مصـــر" وقفت مجموعة من الشـــباب ينتظرون وصول قطار السادسة والنصف، والمتعارف عليه بين "أهل القطار" بقطار "الحبيبة"؛ شـــباب جامعي جميع أعمارهم متقـاربـة، قريبـة من العشـــرين. وقفوا يتجـاذبون أطراف الحديث، ينتقلون من موضـوع لموضـع تنقل الفراشـات من زهرة لزهرة، وكان لهم قدرة عجيبة -حقًا- على الاسترسال. ف "مثلًا" يتحدث علي- الشـــاب الرياضـــي قصـــير القامة، مربع الوجه مجعد الشـــعر- عن آخر الصـــفقات في صـــفوف ناديه المفضـــل، بينما يطل خالد من وراء نظارتيه على نافذة جديدة للموضـوع وهي دور النادي وتحديدًا رئيسـه فيما كان يســـميه -كما فعل د. مصـــطفى محمود- "ألعاب الســـيرك السياسي".

أخذ الجميع يتنقلون على نفس المنوال، بينما وصـــل زميلهم شـهاب، وهو في الثانية والعشـرين من عمره، وكان صـاحب طلة مختلفة فلطالما رأى نفســـه مميزًا موفور الحظ أيضًـــا. وغذى هذا الظن -اليقيني- جســـده مفتول العضـــلات عريض المنكبين طويل القامة وخصوصًا خصره الممشوق. وخلاصة

فقد كان يجمع بين ملامح عربية أصـــيلة كالجبين العريض والأنف الأشــم واللون الخمري المائل للســمرة، وبين جســد لاعب كمال أجســـام. ولابد لنا ما دمنا جئنا على ذكره، أن نوضـــح واحدة من أهم المفارقات في حياته (والتي ليســـت بمســـتغربة -جدًا- مثلها في هذا مثل باقي مفارقات بني آدم) فعلى التزامه اليومي برياضة جسده في صالة الألعاب، إلا أنه كان -كما يقال عنه- "حريقة" تدخين أو "مدخنة" كما يحلو للبعض وصـــفه، وكما يحدث في حالات كثيرة فالوضـــع لم ينتهي بالتدخين، بل جاوزه أحيانًا بتدخين مخدري البانجو والحشيش.

بمجرد وصوله رحب بالجميع بحرارة على طريقته المعهودة، إذ تشـعر بألم في يديك بمجرد مصـافحته، فهو غالبًا ما يتعمد الضـغط أو لنقل -بدقة أكثر- "عصر" يد من يصـافحه؛ رحب بالجميع، ورحب الجميع به. وفور وصوله أخرج علبة دخانه وأخذ "يرش" على الجميع "رشـــة واجب". وبطبيعة الحال سأل عن الحال وعاود السؤال.

وفي الوقت ذاته وصل القطار في المحطة في تمام الساعة السادسة والثلث. فسرعان ما ركبوا وحجزوا لأنفسهم "مربعين" كاملين، تجلس كل مجموعة مقربة في مربع.

جلسوا ينتظرون انطلاق القطار. وسرعان ما عاد الجمع لـ "دورة الفراشة" بين المواضيع المختلفة، ولكن شهاب وحتى وصول القطار وانطلاقه، لم يكد يفتح موضوعًا، بل لم يكد يدلي برأي، مجرد تعقيبات وتعليقات مختزلة هشة، وكان يبديها بتململ وتأفف، إذ لم يجد في الكلام في جل المواضيع المختلفة ما يثيره. إلى أن تحدث أحدهم -عمرو المغرم بالسينما- عن إيرادات فيلم جديد للنجم العالمي "V. D." وكيف أن للأفلام الخالية من المعنى والتي لا تختلف عن الأفلام الإباحية في رأيه، أو على الأقل تشترك معها في كونها تعطي للإنسان جرعات زائدة من الإثارة الخالية من المعنى (كان هذا رأي عمرو على الأقل). لكن شهاب انطلق على الفور في الحديث عن "V. D." وهو نجم شهاب المفضل بالمناسبة، فطفق يحدثهم عن الفيلم وباقي أفلام "النجم"، بل وحكى لهم عن الأبطال المساعدين والبطلة

المشهورة التي تشاركه أغلب أعماله وعن جمالها وإثارتها..

وفي غمار حكيه هذا -بجانب تحرك القطار- انعطف شهاب بالحديث ليكون هو مركزه بدلًا من "V. D.". وحكى لهم عن تجارب مليئة بـ "الجدعنة" و "الفحولة"، وزاد اندماجه في "الدور" فقص عليهم قصة أحد أفلام ذات البطل، وكيف كانت المصادفة عجيبة، إذ يبدو أن الفيلم مسروق من قصة حقيقية هو بطلها.

وفي غمار وصفه لقصته -التي تكاد تكون سرقت منه- الحقيقية، مر بائع "سريح" بالشاي. فقطع شهاب حكيه، ونادى بائع الشاي بأن يصب الشاي لمربعه بالكامل، وأخرج من جيبه ورقة بخمسين جنيهًا، الأمر الذي بدا محرجًا للبائع الذي لا يحمل فكة هذا المبلغ. فقال له:

- انتظر أحاسبك وأنا عائد من هنا.. لا تقلق لابد لي أن أمر ثانية.

= لكني سأغاد القطار في محطة بنها

- لا تقلق

= حسنًا.

وســـرعان ما عاد لما كان يقوله، ويحكي عن مغامراته في القطار، وفي الجامعة، والجميع حوله لا يملون ولا يدورون في فلك إلا فلكه. ولكن أحدهم قاطعه:

- هل نسيت؟ ألا تنوي استعادة الباقي؟

= بلى.. دقيقة بعد إذنكم.

وقطـار "الحبيبـة" لمن لا يعرف هو قطـار مظلم في جـل عرباته، وبه عربتان لا يمر بها كمسري لـــ "قطع" التذاكر هي الأولى (عربـة الموظفين) والثـالثـة (عربـة المنـايفـة) [تحديدًا الأولى والثالثة خلف الجرار]

وفي ظلمة الليل وازدياد ها بظلمة القطار من الداخل، وبينما يعبر شـــهاب في الممر بين العربة الرابعة والثالثة، فإذا به يفاجأ بصوت كأنه تصفيق حار جدًا، أو صوت سوط جلاد من العصـور البائدة، وفجأة تكرر الصـوت ثانية ثلاث مرات على التوالي، وشـعر فجأة بسـخونة كاوية في أعلى ظهره وقفاه، وبرعشـة وبرودة أسـفل ظهره، سـمع في لحظتها ضـحكات مكتومة سـاخرة (والتي -غالبًا- ما تنذر بوجود أمناء شـرطة

" عربة المنايفة) وبدون أي تفكير منه أو تحكم إرادي حمل رجليه على الريح وطار عائدًا لمربعه دون الباقي. وحين وصل سأله أحدهم:

- ما بك؟ أو وجدته؟!

= نعم وأخذت الباقي رغمًا عنه، تصوروا أنه كان يكذب؟ ولا ينوي العودة! ربما كان كل هذا لأني أخبرته بنزولي في محطة بنها!

بعد هذه الحادثة بثلاث ساعات تقريبًا كان يجلس مع شلته يدخن الحشيش ويروي لهم "المقلب" الذي دبره -شهاب- لواحد من بلطجية القطار وكيف قام -هو!!- بـ "سكه" على قفاه.

انتهت

٢٠١٧/٥/٣١

٦- المؤامرة الكونية

"حالة صعبة"

آخر مرة جلست معه فوق السطوح المميز جدًا لمنزله، الداعي للراحة والاستجمام، والمشجع على التدبر والاعتزال، شكا لي صديقي دكتور -أستاذ جامعي- حسام الفاروق من أنه يعاني بعض أعراض اكتئاب وأنه في الآونة الأخيرة يفكر في الانتحار تفكيرًا محضًا لا خوف منه بالنسبة له. وحكى لي عن مؤامرة غامضة تحاك ضده. اقترحت عليه وقتها أن نذهب سويًا لزيارة طبيب صديق لي هو الدكتور محمد جمال الدين الاستشاري الكبير بالمشفى الخاص الذي أعمل به. وقد فاجئني بأن وافق. وبعد بضعة أيام ذهبنا سويًا بالفعل للدكتور جمال الدين، وقد قررت أن أتحنى جانبًا ليس بالركن القصي، بل بمكان وسط خلف ظهورهم لرغبتي الجامحة في معرفة ما يدور بينهما من حوار، ولأطمئن على الدكتور الفاروق بنفسي. وقد وافق كلاهما على هذا بالفعل.

وبدأت الجلسة ودار بينهما الحوار كالتالي:

دكتور جمال الدين: أهلا بك، أنا دكتور محمد جمال الدين استشاري نفسية وعصبية، يسرني جدًا أن أتشرف بمعرفتك.

د. حسام: أهلا دكتور، وأنا حسام الفاروق.

دكتور جمال الدين: عذرًا لم يخبرني دكتور باهي الشريف عن طبيعة عملك!

د. حسام: تقصد لكسب العيش؟ أنا أعمل أستاذًا جامعيًا في قسم العمارة الإسلامية بهندسة العمارة بجامعة عين شمس. ورسالة الدكتوراه – الخاصة بي- كان موضوعها: "العمارة الإسلامية في مصر في صدر الإسلام الأول". ولكن كلمة عمارة هنا كلمة مراوغة بعض الشيء، فالمقصود هو العمران وفلسفته وتجلياته إن كنت تعي ما أقصد.

دكتور جمال الدين: أهلًا وسهلًا بك مرة أخرى. هل لي أن أسأل عن عمرك؟ وصراحة: ما الدافع وراء زيارتك لي اليوم؟

د. حسام: بالتأكيد، بقيت لي سنة واحدة حتى أدخل عمري الثالث، "عمر النضج" (وابتسم ابتسامةً مزج فيها اللامبالاة والتهكم). تحديدًا أنا في التاسعة والثلاثين من عمري. أما عن سبب الزيارة فلا أملك يقينًا في هذا الأمر، كل ما هنالك -وكما ترى- بيننا صديق مشترك وهو الدكتور باهي الشريف، زميل حضرتك هنا بالمشفى، وهو صراحة من اقترح ورتب للزيارة، وذلك بعدما شكوت له أكثر من مرة عن المؤامرة

التي تحاك سرًا ضدي (أمسك عن الكلام برهة وعلت سيماه نظرة ريبة وتفحص ثم انطلق متكلمًا مرة أخرى): لعلك تفكر الآن في الذهان أو الفصام، لكن هذا غير صحيح بالمرة، إطلاقًا. فكما رأيت حتى الآن أحدثك بلا انقطاع لا في الأفكار ولا في الكلام.

فقاطعه دكتور جمال الدين قائلًا: رجاءً لا تستبق الأمور. حدثني عن المؤامرة! متى بدأت؟

د. حسام: لا أذكر تحديدًا. لكن على وجه التقريب قد زاد الأمر في السنوات الخمس الأخيرة، حين قررت أن أتفرغ للدراسة وألا أزاول أعمالًا أخرى عامة أو خاصة.

تدخل الطبيب: وماذا عن البداية "المطلقة" للموضوع؟ أقصد البداية من الصفر، متى بدأ كل شيء؟

فجاب د. حسام: لابد أن أنوه لك عن أمر ضروري جدًا ولعله مفيد من وجهة نظر حضرتك. أنا قارئ نهم، قرأت في شتى المجالات المعرفية، والعلمية بحكم تخصصي. قرأت في التاريخ بل قل "التواريخ"، قرأت أدبًا كثيرًا، وفلسفةً، كما قرأت في الاقتصاد والسياسة ومن المهم أيضًا أن أنوه لحضرتك عن حبي بل وولعي الشديد بالعلوم الإنسانية

وبخاصة النفسية والاجتماعية. لكن حتى لا أشتت حضرتك، وحتى لا أطيل عليك، فإن البداية "الصفرية" كانت في الطفولة. أذكر أني كنت "أشك". كنت أسأل ولا أحد يجيب. كما أذكر أيضًا أني في صباي وحتى طفولتي كنت أجادلهم وكنت أحب هذا الجدل. كان أهم سؤال سألته: لماذا خلقني الله؟ كانوا فيما أذكرك كما لو يستكثرون السؤال عليَّ، وكانوا لا يحترمون عقلي الطفولي ويبحثون عن إجابات يظنون أنها تعجز عقلي الطفولي، لكن هيهات. وقد وصلت بين جدالي لهم ومراوغتهم -وحدي- للإجابة: لأنه إله مطلق له مطلق الحرية -وحده- في فعل ما يشاء. بمعنى أنه لا يحاسب ولا يراجع ولا يُسأل!

فسأله دكتور جمال الدين مقاطعًا: وما علاقة ذلك بالمؤامرة؟

فأجابه د. حسام: علاقته وثيقة، فلقد كانت هذه الأسئلة -بلا أجوبة- هي من فتح عيني على مكمن الإشكال، هي بذرة الشك التي غرست بعقلي ووجداني من يومها. لقد كانت شرارة البداية في معرفة أنهم "لا يشكون مطلقًا"!!

فسأله الطبيب: لكنك لا تقصد بهذا اختلاف الأفهام؟!

د. حسام: بلى، أصبت! (تهلل وجهه وسرعان ما عاد لملامحه الباردة) هناك فارق مهول بين اختلاف العقول والأفهام وبين انعدامها. أو على الأُقل محاولة التظاهر بذلك.

(همهم الطبيب -اممم- مدعيًا موافقة لا يقتنع بها من داخله، هكذا بدا عليه، لكن الأمر كان لابد معه للانتقال لسؤال تال، أكثر دقة وأكثر تحديدًا للغوص في أعماق المسألة) اممم، تمام، وماذا عن المؤامرة؟ ما وجه المؤامرة في هذا؟ أريد أن أفهم المؤامرة بطريقة شمولية رجاءً.

فأجاب د. حسام: باختصار شديد، هدف المؤامرة أن أشك في قواي العقلية؛ يريدوني أن أعترف لهم بجنوني! لكني لم ولن أفعل أبدًا، وإن كنت بدأت أرضخ تحت شمولية المؤامرة وثقلها.

دكتور جمال الدين: من هم؟

د. حسام: الجميع، الجميع باستثناءات نادرة، كل من حولي، كل الناس، في المواصلات، في الشارع، في الجامعة، حتى في مواقع التواصل الاجتماعي!

دكتور جمال الدين: إذن فأنت تشك في أن هؤلاء جميعًا اجتمعوا على دفعك للجنون؟

د. حسام: أجل هذا صحيح.

دكتور جمال الدين: كيف يدفعونك للجنون إذن؟

د. حسام: لهذا السؤال تحديدًا جئت لحضرتك. لعلك تملك لي إجابة تفسر سلوكهم هذا المسلك. إنهم -جميعًا- يتكلمون فيما لا يفهمون، بل وفي كثير من الأحيان يقولون ما لا يعون، ويعون عكس ما يقولون. إن جاز لي التعبير والوصف فهم جميعًا -وهذا الذي يظهرونه بالتأكيد هو محض ادعاء واختلاق- يتكلمون ويتصرفون كمجموعة من القرود المدربة، كل ما يقولونه وكل ما يفعلونه هو قول وفعل "بالشبه". وكثيرًا ما يتنمرون عليّ ويسخرون مني لأني لا أفعل فعلهم، ولا أقول قولهم، يريدون أن أكون واحدًا منهم، أن أكون مسلوب العقل والإرادة حتى يفعلوا بي وبمستقبلي وكياني ما يحلوا لهم! هل تعرف معاني مفردات مثل "أصيل" و "أصالة"، هم على العكس تمامًا من هذه المعاني، بل إن أخف ظلال هذه المعاني ينفر منهم وينتفي عنهم بالكلية. حتى زوجتي وبناتي وبالرغم مما يظهروه ويتظاهرون به من شفقة

عليَّ فهم نسخة من النسخ الكثيرة المكررة والمعيوبة من المتآمرين الغفل هؤلاء. (وهنا يبدو عليه أن يجد صعوبة في المواصلة وفي التنفس في الوقت ذاته، فيفك رابطة عنقه وأزرار قميصه العلوية).

(يسجل الطبيب -جمال الدين- هذا الانفعال في مفكرته الصغيرة، ويسأله): ولكن هل فكرت أن هذه طبيعة البشر، أعنى أن هذا السلوك هو من طبائع الأمور!

(تنهد ثم أجاب): فكرت في هذا لسنوات طوال وكثيرًا ما راجعت نفسي! ولكنهم بلا شك متآمرون أغبياء، مفضوحون!

دكتور جمال الدين: هل تعذرني إن استجمعت شجاعتي لأخبرك أني حتى الآن لم أجد مؤامرة فيما تقول؟ هل بإمكانك أن تروي لي ولو موقفًا واحدًا يؤكد ويثبت ما تدعي من مؤامرة؟

(زفر زفرة قوية ملؤها الغضب والضيق، وقال): سأقص عليك آخر موقف حصل أمس. حسنًا. إن أحد تلامذتي -من مدعي الذكاء والعبقرية!!- كان يتهامس مع زملائه أمس عن كوني مجنون وبلفظه هو: "خلل" و "دماغه ملسوعة" وقال: "لماذا أستاذ جامعي مثله لا يدرس بجامعة خاصة أو حتى

يعمل كاستشاري للشركات الكبيرة الشهيرة، مع العلم بأنه مشهور واسمه وحده مطلوب في السوق؟" كان يعلم أني واقف بجواره ومع ذلك لم يتحرج من وجودي، وتعمد إسماعي ما قال!

دكتور جمال الدين: وماذا فعلت؟

د. حسام الفاروق: قاطعتهم وأخبرتهم بأني سأخبرهم في محاضرتي التالية –في مادة "فلسفة العمارة"- بالإجابة الشافية الوافية. وبالفعل حين دخلت المحاضرة هممت بأن أشرح لهم لماذا لا يهتم من هو مثلي لا بكبرى الشركات فحسب، بل بالمال بوجه عام، ولكني بحثت في وجوه العدد القليل من طلابي فلم أجده لا هو ولا رفقته أتدري لماذا؟

دكتور جمال الدين: لماذا؟

د. حسام: لأني لا أعد جزاء للحضور ولا أتوعد بعقاب للغياب. لأن قناعتي أن العلم إن لم يطلب لذاته، وللعمل المتقن به، فلا نفع له، وهو حينئذ مجرد "نفخ في قربة مثقوبة".

دكتور جمال الدين: إذن أنت تدري -تحديدًا- لماذا لم يحضر!

د. حسام: كلا! لا أدري! إن طلابي -على قلتهم- دائمو الحضور وهو لم يكن بينهم يومًا من الأيام. فلا أعلم لماذا قال هذا من الأساس؟! لعله أراد أن يقلب عليّ تلامذتي؟! رباه، لو أعلم من دسه وحرضه ضدي؟!

دكتور جمال الدين: حسنًا يا دكتور، دعنا نسأل في اتجاه آخر بعض الشيء، قل لي هل تسمع أي أصوات غربية، لأشخاص تعرفهم أو لا تعرفهم، لكنهم لا يكونوا متواجدين حين تسمعهم؟

د. حسام: غريبة! أحسب أن هذا السؤال من صلب الموضوع! وعلى العموم فكل ما أسمعه وأنا وحدي هما صوت ضميري وعقلي أو نفسي، وهما -بالفعل- غير مجسدين وملازمان لي في أغلب الأوقات.

دكتور جمال الدين: هل يهمسان لك بأي شيء فيه أذى لك.

د. حسام: صوت عقلي يسألني كثيرًا: لماذا تتحمل العيش في ظل ظروف ساخرة كهذه؟ وصوت ضميري وحده ما يمنعني من الانتحار مخافة الله ومخافة الإجابة على سؤاله الملحّ: إذا قتلت نفسك فما مصير بناتك من بعدك؟ حتى وهن متآمرات

كغيرهن إلا أن عاطفة قوية تملكني تجاههن وتمنعي من القسوة عليهن حتى بأحكامي.

(همهم الطبيب مرة أخرى وسجل شيئًا ما بمفكرته الصغيرة، وسأل): اممم، هل تناولت أي أدوية أو عقاقير مهدئة أو مضادات اكتئاب أو ما شابه؟

د. حسام: نعم، قد أوصاني طبيب -باطني- بدواء -مهدئ- اسمه "آجر...." لقولوني العصبي جدًا كما شخص.

دكتور جمال الدين: متى كان ذلك؟

د. حسام: من ثلاث سنوات.

دكتور جمال الدين: وهل لازلت تتناوله حتى الآن؟

د. حسام: نعم

دكتور جمال الدين: كم قرصًا تتناول يوميًا؟ وهل حصل في يوم من الأيام أن تناولت منه أكثر من المعتاد؟

د. حسام: مرتين فقط يومين ولم أزد عن هذا مطلقًا.

دكتور جمال الدين: دعني أسألك سؤالي الأخير: هل تحبذ أو تقبل أن تقيم هنا بالمشفى لبعض الوقت؟

(فكر برهة ثم قال): أعتقد أن هذا سيكون أفضل. (ثم استدرك): لكني ملتزم بمنهج دراسي. أعتقد أن فترة إجازة نهاية العام الدراسي ستكون مناسبة.

دكتور جمال الدين: جميل جدًا، سأكتب لك مجموعة من الأدوية وأعطيها لدكتور الشريف يصرفها لك مجانًا هنا من المشفى، على أن تقلع عن هذا الدواء المهدئ الذي ذكرته.

فشكر د. حسام الفاروق، وسلم، وغادر، لينتظرني بخارج المشفى. وانتظرت وصفة دكتور جمال الدين الطبية، وشد ما كانت دهشتي حين قرأت التي في خانة التشخيص:

Anxiety with depressive paranoid schizophrenia symptoms

(قلق مصاحب بأعراض اكتئاب ذهاني-فصامي).

وحين قابلته خارج المشفى، أصر ألا يأخذ العلاج إلا أن يرى الوصفة الطبية "الروشتة" ويعاينها بنفسه، وحين امتنعت قال: لن آخذ العلاج ما لم أعرف المرض!

فانصعت لأسلوبه الآمر الناهي وأعطيته الوصفة، وحينما وقعت عينه على التشخيص بدا كأنما يقرأ ويعيد القراءة ثم

قال لي: حتى أنت؟! أنت وطبيبك المغفل؟! كنت صديقي الوحيد.

أخذ مني الوصفة والعلاج وولى مغاضبًا مسرعًا، ومن آنها لم يعد لبيته وأغلق هاتفه النقال..

انتهت...

٢٠١٧/٦/٧

٧- أدوار

"بعد الثورة"

وقف على خشبة مسرح "فراشة انتخابات"، يلقي على السامعين من جموع الحاضرين خطبة عصماء، عن دور العمال والفلاحين، المغبونين حقوقهم، والواقعين جلهم تحت خط الفقر، والعائشين بين كفاف زهيد، وجفاف بغيض. وقف يحاضرهم عن حقوقهم في حد أدنى من الكرامة الإنسانية، وعن حظوظهم المغدورة في فرص العلاج والتعليم، والمعاش والتأمين. وقف يخطبهم ساعة من نهار، حتى كاد أن يثورهم ضد الحكم والحكومة. ويهبهم أملًا جديدًا فيما إن انتخبوه - بعد ترشيحه نفسه- أن يكون لهم عينًا ودرعًا وسيفًا، على الفساد ومن الغلاء والكواء ومحاربًا للرعونة والاستهتار في دوائر صنع القرار.

وما إن انتهت خطبته العصماء تلك، قام أحد الشباب الغفل المشككين المتشككين بسؤاله -في فقرة الأسئلة- بسؤالين، فقام -الشاب- واقفًا يسأل قائلًا:

واحد- ماهي الضمانة على الوعود التي تعدنا وتمنينا بها الآن أن تفي بها حال وصولك للبرلمان؟

اثنان- ما هو الدور الذي تنوي لعبه تحت قبة البرلمان خاصة وأنك مرشـــح مســـتقل؟ فهل تنوي من الآن القيام ببعض التحالفات؟ ومع أي جبهة أو حزب تنوي التحالف؟

فقام المرشح المتواضع الزهيد، نصير العمال والفلاحين وكل "الغلبانين والمســـاكين"، وبنبرة هادئة واثقة، وفي الوقت نفسه رخيمة متواضعة، قال:

أخي الأصــغر، الشــاب المثقف، ينبغي عليّ قبل أن أجيبك أن أشكرك على صدقك وفطنتك، وأتمنى أن يكون جميع الشباب على نفس القـدر من الحمـاس، ويفكرون بنفس طريقـة تفكيرك. أما بخصوص ما سألت:

فأولًا: وأنا من الكارهين للحديث عن أنفسهم خصيصًا، ولكن لابد مما لابد منه! طالما سألت يا أخي عن الضمانة، فلا أملك لك ولكم جميعًا إلا ضــمانتين هما: اســمي، وتاريخي الطويل في نقابة العمال، وأغلب الحاضـــرين هنا يعرفونني جيدًا، أقصـــد أنهم خبروني عن قرب في مواقفي الصـــعبة. وعلى سـبيل الذكر لا الحصـر: كانت مشـكلة مصـنع الحديد الأخيرة خير دليل على إخلاصـي لكم وصـدق نواياي تجاهكم وحسـن بلائي في المواقف الصعبة!

أما عن السؤال الثاني: فاسمح لي ألا نستبق الواقع. وأريد أن أؤكد لك خصوصًا وللحضور جميعًا بأني وبإذن الله ستكون مصلحتكم هي المحرك الأوحد لي، وستكون دائمًا قبل مصلحتي الشخصية، والله على ما أقول شهيد، وهو وحده من وراء القصد وهو الموفق والمعين.

وبعدها طاف ببعض قرى مركزه/دائرته الانتخابية لأيام يلقي نفس الخطبة حتى حفظها عن ظهر قلب. ويطوف معه زمرة من معاونيه ومؤيديه، وبعض من مريديه المخلصين. وقد استطاع بصدق قوله وحسن بلاغته أن يأسر القلوب ويعبئ الحشود ويمني النفوس ويقنع الأفهام والعقول.

أجريت الانتخابات، وما أن كان يوم التصويت، حتى كان فوزه حاسمًا بفارق مناسب عن باقي منافسيه من الوجوه القديمة التي ملها الناس، ومن قوائم الأحزاب الضعيفة. وما أن كانت ثالث جلساته في البرلمان، إلا أن انضم لكتلة المعارضة التي تحوز من الكراسي الثلث أو ما يزيد قليلًا. ولأنه "صاحب وجه معروف" و "اسم مشهور"، اشتهرت عنه رحلة كفاحه الطويلة في النقابة وخارجها، فقد رشح، وتولى بالفعل أمانة أحد اللجان، والتي كان لها دور الرقابة

المباشرة على الحكومة. وما أن استتب الأمر وبانت الخطوط العريضة للمجلس ككل، حتى بدأ سلسلة من كشوف الحساب العسير للحكومة بوزاراتها المختلفة، انتقد فيها سياستها المالية بالأخص وضعف القدرة الإنتاجية بشكل عام. ونادى بمسائلة ومحاسبة كل من وزراء التربية والتعليم، والتعليم العالي، وأخيرًا وليس بآخر وزير الصحة والسكان على الضعف العام، وتردي الحال داخل أروقة الدوائر والإدارات الصغيرة بكل وزارة من هؤلاء. واستهجن بشدة وبحزم التوجه العام لهذه الوزارات، وبعدها عن الواقع وعدم حلها للمشاكل الرئيسية، والتي من المفترض أنها لم تكن إلا لحلها والعمل الدائم على إصلاحها. وكان في كل هذا بليغًا أيما بلاغة، وكان يظهر قدرة قوية على الاستشهاد، فمثلًا حين تحدث عن حقوق الأطباء والمعلمين ضرب المثل بقصة د. حسين مؤنس الشهيرة واللاذعة "إدارة عموم الزير".

ولكنه ومع الوقت قد خفت حدة نبرته النقدية، وبدا وكأنه للمرة الأولى في حياته يدرك حقيقة أن "الناس عبئ ثقيل" وأنهم لا يفلحون إلا في اللوم والشكوى، وأنهم هم أنفسهم لو صاروا إلى ما صار إليه أصحاب المناصب لما فعلوا غير

فعلهم. وقد تكاثرت على باب بيته وعلى مكتبه أوراق شكاوى وطلبات جلها مشـــاكل فردية، والبقية القليلة الباقية فئوية بحتة لا تهدف إلا لحل مشكلة قطاع صغير من الناس، وعلى حســـاب شـــرائح أكبر. وأدرك حقيقة جوهرية مفاد ها أن "الناس مهما كانوا يعانون من نفس المظلمة، فلن يتحدوا، ولن يطالبوا بحل جماعي، بل وبأنانية مفرطة، كلٌ يقول: نفسـي نفسـي". وبدا أيضًـا يرى نفسـه كواحد من هؤلاء له طموحات وتطلعات؛ بخاصـــة حين تخرج أحد أبنائه في كلية الحقوق وأراد تعيينه في سلك النيابة. الأمر الذي سمح له به منصبه وقواعد المجلس غير المنصوص عليها. مثل حقه في ترشـيح عشـرة طلاب للالتحاق بكلية الشـرطة (وهو ما فعله مع ابني أخيه التوأمين بالفعل في بداية الدورة الانتخابية) أو كتأشيرات الحج والعمرة المجانية.

وسأل نفسه على أوقات متباعدة لكن متكررة: كيف لا أضمن لابنتي زيجة تؤمن مســـتقبلها من عوائد الضـــهر ونوازل الأيام؟ ومن هنا، وانطلاقًا من مبدأ "اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك"، بدأت علاقته بجاره "ســـيادة" المســـتشـــار، في "التجمع" الشـــقة التي اشـــتراها بتســـهيلات شـــديدة، تقدم

حصرًا لحامل "بطاقة" عضوية البرلمان. فقد أراد من خلال بعض الأعمال والزيارات المتبادلة أن يدفع سيادته لخطبة ابنته لابنه -ابن المستشار- الطيار برتبة نقيب.

وفي إحدى الأيام وهو في طريقه للمنزل -بالسيارة المرسيدس التي وضعت لخدمته خلال فترة عضويته بالمجلس- هاتفه وزير الداخلية شخصيًا، وطلب إليه أن يخفف حدة النقد للحكومة (قدر المستطاع)، لأن هذا مما يشق الصف، الأمر غير المرغوب فيه حاليًا، والذي -في ذات الوقت- ليس من مصلحة الوطن، في ظل هذه الظروف الصعبة التي يعاني منها كلًا من الحاكم والمحكوم! وبالفعل ومع مرور الشهور تحولت جرعة النقد المركزة إلى محلول ملحي مخفف!

وفي نهاية العام الرابع له في البرلمان طلب إليه مباشرة من رئيس الحكومة الجديدة أن يقدم استقالته في البرلمان، ليتفرغ لمهامه الجديدة كوزير للشباب، الأمر الذي وافق عليه مباشرة، محتفيًا به كنصر أخير له في طريقه النضالي الطويل.

وذات أمســـية، في حفل افتتاح مركز للشـــباب بإحدى قرى مركزه (دائرته الانتخابية سـابقًا)، الحفل الذي حرص حرصًـا على حضـوره؛ سـمع جلبة في الحفل. إنه أحد شـباب القرية، يريد الوصـول إليه، ليسـأله سـؤالين (كما ادعى الفتى)، الأمر الذي تكرم "جنابه" وســـمح به في النهاية. وحين اقترب الشـاب منه تذكره -حتى بعد مرور خمسـة أعوام على خطبته العصـماء التي ألقاها بذات القرية- إنه ذات الشـاب صـاحب السؤالين.

وقف أمامه الشـــاب محدقًا به لوهلة، ثم تفل باتجاه الأرض قائلًا: "يا خائن نفسك يا واكل ناسك.. اتفو". فما كان منه إلا أن أمر بالقبض على "عدو النجاح" الحاقد هذا!

انتهت

٢٠١٧/٦/١٤

٨- عالم غريب جديد

بضـــغطـة زر انطلقـت المركبـة مخترقـةً حواجز الصـــوت والضوء، وبشدة بسيطة حركت بها إصبعي لأسفل، فتح لي المجال عن آخره. وبلف بكرة التجوال لأسفل أخذت أطل على غرائب هذا العالم وعجبائه. وقفت من داخل مركبتي الآمنة أراقب تلك الكائنات. ماذا تقول؟ وما تفعل؟

وأول ما وقع بصـري وقع -للأسـف- على حادث سـفك دماء رهيب، راح ضـحيته أخوين وابن عمهما، قامت به مجموعة متشـــحة بالســـواد، ولا نعلم العلة واراء حادث القتل المروع هذا. فقط كل المعلومات الموضحة على الشاشـة أن أحدهم - أحد الأخوين- صاحب عصارّة، وابن عمه سائق سيارة أجرة. لم أفهم شـــيئًا على الإطلاق، وفقط شـــغلني الســـؤال طويلًا (الطول هنا نسـبي لا يتعدى هنيهة أو بعض ثوان) لماذا يقتل الإنسان الإنسان؟ لم تقنع عقلي الإجابات البسيطة التي قدمها لي مباشـرة، ولا التحليلات التي اقترحها البعض وظهرت لي على شاشة المركبة... فغضبت!

لفة أخرى للأســفل قليلًا، تقدمت بي المركبة مســـرعة، نحو حادث آخر، حدث أمامي مباشـــرة، لكنه كان بالصـــورة فقط،

دون الصـــوت. امرأة تغفو في عربة قطار للأنفاق فتســـقط رأسـها على كتف رجل غريب، ولحسـن حظها يبتسـم الرجل، ويتلمس لها كل الأعذار الممكنة وغير الممكنة، ويتبسم ثانية وثالثة. وفي اللحظة ذاتها، وهو مازال يرسـم البسـمات على وجهه، يســـقط على كتفه الآخر رأس رجل كان وراءه يوم عمل ثقيلًا على ما يبدو. فسرعان ما ينفضه عن كتفه ويرسم وجهه ملامح حادة غاضبة، فعجبت لفعله... فقهقهت!

لفة أخرى لأســـفل، تتقدم المركبة، تبحث عما يلفت النظر، ألفها أسـرع قليلًا فقد تزاحمت الحوادث والمواقف، وبالتأكيد كلها لا تســـترع الانتباه. وقفت بي المركبة -للحظة- أمام صـورة جديدة، صـورة جميلة، ركبها صـديق -لنفسـه- داخل إطار يشـــجع فيها منتخب بلاده. وهو بالمناســـبة من دولة أوروبية، حيث أنني أعقد صـداقات حول العالم بأسـره. كتب فوقها "التقطت بواسطة: ...." وكتب اسـمًا لم أستطع تبينه حتى لا أكذبكم القول. أعجبتني الصورة بشدة، حتى تمنيت أن أكون صاحبها، فأحببتها... وعن الحب عبرت!

ولفـة أخرى، أتوقف أمـام صـــورة أخرى داميـة، كتـب على الشاشة تعقيبًا عليها قولًا لأحد الشعراء:

سنغلب والذي رفع الضحايا

مـن الأنـقاض رأسًـا للجـنان

رماديـون كالأنـقاض شعـث

تـحـددهم خـيوط الأرجـوان

صورة مؤلمة، لشعب كامل يحتضر، يحاصره العالم بأسره فيما يبدو، لا صديق لهم، ولا قريب منهم إلا عدو. وقفت طويلًا -كذات الطول الأول- أمامها، أحاسب نفسي: ماذا قدمت لهم؟ ألم تخنهم أنت الآخر؟ تأثرت تأثرًا... فدمعت عيناي!

وأكملت رحلتي بلفة أخرى لأسفل، لكن هذه المرة أوقفتني كلمات كتبت على جدار بيت أحدهم، وعلى ما يبدو أنها آية من القرءان. كتبها كأنه يقرأها للمرة الأولى، ولشدة تأثره تأثرت، فقرأتها كأنما أقرأها للمرة الأولى:

"وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ"

وقفت -كعادتي- للسؤال، لكن هذه المرة غلبتني الدهشة، لشدة ما تأثرت... فدهشت!

وبحكم العادة، أكملت الرحلة، وبلفٍ سريع، سريع جدًا، شذرة، خلفها شذرات، لا أقف عند نقطة، إلى أن قابلني اقتباس على جدار أحدهم، إنه اقتباس عن دوستويفسكي:

- لم يعد في وسعي التحمل.. أعطني البندقية!

- ماذا ستفعل؟.. الانتحار خطيئة!

- أي انتحار أيها الأبله؟! سأقتل الجميع!

أعجبني الاقتباس كثيرًا حتى تبسمت منه.. فبه أعجبت!

وفي اللحظة ذاتها جاءني صوت أمي عاليًا حادًا قاطعًا كصوت أحد القادة العسكريين: "قم ذاكر دروسك يا موكوس".. فنفضت عن نفسي غبار الرحلة... وقمت!

انتهت ٢٠١٧/٦/١٦

٩- الإرهاب (كاميرا ونظارة سوداء)

قد تعتبرون ما سأرويه لكم الآن، محض دعابة، أو "نكتة" ثقيلة الظل لبعض الأسباب، لكن الأمر ليس كذلك بالمرة، فما عايشته أنا كان قلقًا ورعبًا، كان حادث إرهاب مثالي، وهذا يطرح علينا هذا السؤال: أيكون الإرهاب مضحكًا؟!

بدأ كل شيء في عيادة طبيب الرمد، جلست وزوجي ننتظر وصول الطبيب، وما أزحمها عيادات الأطباء، وبخاصة أطباء الرمد. دخل علينا شاب مراهق ربعة نحيل، لجلده تلك الدرجة المختلطة من الخمرية والبياض، حليق الشعر خافض الطرف. جلس بجواري مباشرة على الفوتي المعدني البارد بفعل مكيف الهواء وبحكم طبيعة المعادن. سألني بعد أن تنحنح محاولًا رفع صوته الخفيض: متى يأتي الطبيب؟ فأجبته بأني لا أدري على وجه التحديد، وهي على كل حال مرتي الأولى في هذه العيادة. شعرت ببعض الارتباك من ناحيته، فقلت بنفسي: ربما هو توتر المرة الأولى، ومن يدري ربما كانت به علة أو سقم كبير أو ينتظر نتيجة فحص ما. لكنه على كل حال كان قريب البسمة، فبش وجهه عن عمد، وقال: شكرًا جزيلًا، قالها بلهجة منبسطة لكنها لا تخلو من توتر على كل حال.

في العيادات الطبية تمر الدقائق ساعات طوال، ومن باب المزاح قلت له على سبيل الدعابة: لقد صدق من قال: إن الانتظار يثير غريزة القتل في الإنسان! فعلت سيماؤه نظرة ريبة لكنها خافتة هي الأخرى، وابتسم تبسمًا شاحبًا، لا لون له ولا دلالة. وكأنه أخذ الجملة يلوكها المرة تلو المرة في أم رأسه. ثم قال: إن القتل فعلة شنيعة على كل حال. لم أدر ماذا أقول له، ولم أجد ما أرد به، فحاولت إنهاء ذلك الجدل بين الغرباء، قبل أن يبدأ، فقلت: معك حق. فسكتَ وسكتُ.

التفت لزوجتي محاولًا قتل بعض الوقت وتسليتها، فقلت لها: يبدو أنك ستصبحين أنتِ الأخرى من أصحاب "الشوافات". فلكزتني في صدري وقالت: وجدت من الأفضل أن أقلدك، وعلى كل حال لن نحتاج "شوافاتك" بعد الآن في "لضم الإبرة". فقلت لها على سبيل الدعابة أيضًا: ستبدين كأطباء العيون أولئك، أولئك الذين نجلس في انتظارهم بالساعات، ولربما كان درس الصبر هذا مقصود منهم! فمن يدري ربما كان الطبيب بالداخل ويريد إشباع غريزة الإيجو، ليشعر بكونه مطلوبًا وبشدة ولو من مرضى! ابتسمنا، ولكني فوجئت بسؤال أتي من جاري الشاب: هل من المحتمل أن يكون

الطبيب بالداخل فعلًا ويتركنا هكذا حتى تمتلئ العيادة؟ فأجبته أن كل ما قلته كان مزاحًا، ولكن ولأصدقه القول قلت: ومن يدري؟

وفي الحال رفع بصره لكاميرات المراقبة الموجودة على المدخل وفي الممر وفي صالة الانتظار، يتلفت بينها جميعًا. ثم سألني: ترى من يراقبنا الآن؟ من يجلس خلف هذه الشاشة الخفية يراقب سلوكنا ولربما نقاشنا؟ وأخذ يقرض أصابعه وأظافره. فلم أفهم عليه سؤاله، ولكني تظاهرت بالود وقلت ثانية مبتسمًا: ومن يدري؟

بعدها بدقائق ذهب للحمام يتمتم بهمس خفيت لا يسمع ولا يفهم، فعدت لزوجتي نمزح حول موضوع "الشوافات" التي ستصير جزءً من شخصيتها كما صارت لدي وكما كانت تخبرني دائمًا. ولكنا قطعنا مزاحنا لنرقب المريض الجديد. رجل حليق اللحية، قصير الشعر، وله شارب حاد، وواضعًا على عينه نظارةً سوداء، ويبدو أنه هو الأخر يعاني من نحافة بدنه، كانت تقوده ابنته فيما يبدو، وأجلسته على الفوتي المواجه لنا تمامًا. واستأذنته في النزول لشراء بعض الأشياء حتى يأتي الطبيب، فأذن لها وانصرفت.

عاد الشاب بعد دقائق من انصرافها، فجلس، وكان يتمتم كما ذهب، ويقصف أظافره بأسنانه ويعض على أصابعه. فلم أجد بدًا من التدخل، وسألته: وأنت مما تشكي؟ فقال إنه يعاني "الإستجماتزم" ولكنه قال جملة أخرى لم أفهمها، قال: ولكن ليس هذا ما أشكو منه الآن. فقلت له إني لم أفهمه صراحة، فقال: لا داع لأن تشغل بالك، كل ما بالموضوع حديث أجريته في سكني الجامعي ليلة أمس ويبدو أن هناك من وشى بي. فسألته لمن؟ فقال: لا تشغل بالك! وما ينبغي لي أن أعيد الكلام ذاته مرتين. ولكنه فجأة بدا عليه الذهول والانقباض حين رأى الرجل الضرير الجالس قبالتنا، وسألني بصوت هامس: متى جاء هذا مشيرًا له بحركة من رأسه، وتحديدًا بإشارة من ذقنه؟ فقلت من خمس دقائق. فبدا عليه الانقباض ثانية وسكت.

ظل لدقائق يتلفت بين الكاميرات، ثم يعود يخطف نظرات إلى صاحب النظارة السوداء الجالس قبالتنا. بدأ يتمتم بصوت هامس مرة أخرى، ولكني سمعته هذه المرة، وإن كانت بصعوبة!

لقد كان يقول: لقد وعدت أبي وأمي وجدي ألف مرة ألا أتكلم في السياسة، فما بالي حين فعلت؟! هل كان لابد من السباب؟

ولماذا سمحت له باستدراجي بهذه السهولة؟ إنه يحكمون قبضتهم عليّ الآن. إنهم يتبعونني في كل مكان. لابد أن أحدهم يجلس أمام شاشة الآن ليراقب أفعالي وأقوالي. ثم اختلس نظرة تجاهي، ثم تجاه الرجل صاحب النظارة السوداء، ثم قام للحمام ثانية.

عاد سريعًا هذه المرة، ولكن بدا عليه شدة التوتر والارتباك، فقدم نحونا ثم توقف ونظر ناحية الممر المؤدي لغرفة الكشف، فنظرة تجاه باب العيادة، ثم قرر أن يعاود الجلوس بجواري؛ كان من اليسير جدًا أن تقرأ أفكاره كأنما تعرض على صفحة جبينه. وحين جلس هذه المرة علا صوت تمتمته قليلًا، وكانت أطراف جسده ترتعش، حتى وهو جالس، لابد أنه أثر الأدرينالين، ولكن لماذا يفرز جسد شاب مثله هذه الكميات من الأدرنالين؟!

سألته: ما بك؟ فسهم ولم يجب. ثم التفت نحوي وأخرج قلمًا من جيبه، وكتب رقم هاتف أرضي على منديل وأعطاني إياه، قائلًا: اتصل بهم وطمئنهم عليّ وقل لهم إن لم أعد غدًا إلى البيت فليسألوا عني في أمن الدولة. أخبرهم أني للأسف خنت وعدي لهم بألا أتحدث في السياسة ثانية. لقد تجادلنا أمس أنا

وزملاء، حول أزمة الطاقة العالمية واقترن حديثنا بجدل سياسي عن دورنا الخنوع في الموضوع، وقد أخذ منا الحوار ساعات، عرجنا فيها بكل العطفات والمنحنيات، وأذكر أن آخر ما كان من كلامنا كان عن قتل الطلبة في الحرم الجامعي. قطع كلامه، وبفم مشدوه نظر نظرة من رأى جانًا إلى الرجل الجالس قبالتنا، وقال أتدري لماذا يحبون ارتداء النظارات السوداء؟ كلي حيرة وأسئلتي كثيرة، لكني قلت له مرغمًا: لم؟ فقال هل سمعت عن سجن البانوبتيكون من قبل؟ كلا أينه هذا؟ إنه أشبه ما يكون بنظرية معمارية لصاحبها جيرمي بنتام، عبارة سجن يتوسطه برج مراقبة عاكس لا يرى فيه الحارس، ويعتقد كل المساجين أنه يراقبهم جميعًا في الوقت نفسه. فقلت: حسنًا.. ما لهذا السجن؟

فقال: لقد تم تطويره مع الزمن ليصبح بدلًا من تصميم هندسي معقد ومكلف، لنظام أدواتي بسيط وغير مكلف، ولكن فعاليته أكبر! لهذا السبب تحديدًا يرتدون النظارات السوداء، ولهذا السبب أيضًا يضعون الكاميرات في كل مكان حتى بداخل ممر الحمام! إنهم مأسورين بهذه النزعة الاستعلائية التي تود كشف كل ما يدور بالعالم، أو بعالمنا نحن بالأخص.

ورغم أني لم أفهم أي شيء على الإطلاق، قلت: همم.. وماذا الآن وإن اتصلت فمن عساه سيكلمني (سألته والريبة بداخلي تكاد تقتلني). فقال: كل ما عليك أن تتصل وتخبرهم كما أخبرتك. وفجأة قفز من مجلسه و"طار" موليًا غبارًا..

قرأت في صحافة اليوم التالي في الجريدة المسائية عن حادث انتحاري لشاب في سن الورد. اقترن الخبر بصورة الشاب ذاته الذي طلب مني أن أكلم أهله! لقد هجم على جنديان يقفان للحراسة على أحد أبواب مبنى أمن الدولة الضخم بمدينة نصر. ولحسن الحظ (!) لم يمت غيره، حيث اضطر الجندي، حين حاول الشاب أخذ سلاحه، لرميه برصاصتين اخترقتا صدره.. ولا أدري ماذا أفعل الآن. وماذا عساي أن أفعل ومن المحتمل جدًا أنهم يراقبونني أنا الآخر الآن؟!

انتهت

٢٠١٧/٦/٢٣

١٠- جيمر

في الثالثة من عمره بدت جلية عنده بعض أعراض التوحد أو متلازمة أسبرجر دون القطع بهذا التشخيص. وكان مكتشف الحالة أمه طبيبة الأطفال بمستشفى الزقازيق الجامعي. وهي وحدها، نظرًا لسفريات والده المتكررة كمترجم محترف إلى طهران بإيران؛ الأم وحدها هي التي حاولت علاجه.

في السادسة كان يفضل اللعب بالمكعبات وبقطع الشطرنج الخاص بخاله الذي يبيت معهم كثيرًا في المنزل في غياب والده، وكان أحيانًا حين يخرج للعب في الشارع يستخدم بعض قطع الحجارة الحمراء كسيارات سباق، أو يتخيلها كسيارات شرطة ومطافئ وإسعاف!

رجع والده لإجازة علاجية سريعة إلى القاهرة، إذ اشتكى من آلام في البطن، وشك أنه يعاني من فيروس كبدي. واشترى له وهو في الرابعة الابتدائية جهاز ألعاب "أتاري"، تعلم أن يقضي عليه الكثير من الوقت في فترات الإجازات. وكانت لعبته المفضلة: لعبة قتال حربية اسمها "كونترا" ولكن حبه

لها وشـــغفه بها لم يمنعه من لعب جميع الألعاب بأشـــرطة "الأتاري".

ارتبطت مرحلة الإعدادية في ذهنه بصـــورة أجهزة "البلاي ستيشـن ١" حيث اعتاد الفرار من بعض الدروس وقضـاء الوقت في مركز بنفس شـــارعهم بالمدينة. ولكن وعدًا قطعه والده على نفســـه -هاتفيًا- إن كان من الأوائل في الإعدادية فسـيشـــتري له جهاز حاســوب "بانتيم ٤" أحدث إصـــدار وبأعلى الإمكانيات المتاحة. وقد كان، وإن كان بمجهود أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، حقق أمنية أبيه!

أدمن جميع الألعاب القتالية، بجانب لعبة كرة القدم الشـــهيرة "فيفا" والتي آخذ يتابع إصـــداراتها الســـنوية. وكان على الرغم من ولعه باللعب عن طريق الشـــبكة، إلا أنه كان من محبي ألعاب المغامرة والقتال الفردية أيضًا.

وأخيرًا وفي الســنوات الأخيرة وبخاصــة في مرحلة انتظاره الجيش، عشــق لعبة قنص اســمها "قناص النخبة". وكانت لعبته المفضـــلة والمختارة من بين جميع الألعاب التي لعبها طوال حياتها المليئة.

ولحسن حظه -وكما يعتبره من حسن الحظ الأغلبية الكاسحة من الشباب المصري- أعفي من الجيش باستثناء سياسي، نظرًا لظروف سفريات والده المتكررة بين إيران وشرقي العراق. وكان الموضوع بالنسبة له لا يمثل فارقًا كبيرًا.

إلا أنه وفي ذات ليلة وهو جالس يقنص على جهازه، داهمت شقتهم قوات من الشرطة من "الأمن الوطني"، بحثًا عن أبيه أو أي دليل إدانة على عمالته أو خيانة عظمى. لكن ولسوء الحظ أو لحسنه على السواء كانت والدته بصحبة أبيه في هذه الليلة في مشفى الزقازيق الجامعي، لإجراء بعض الفحوصات الطبية على الدماغ، حيث هناك شك بإصابته بجلطة دماغية بسيطة، أثرت أثرًا بسيطًا نسبيًا على كلامه وحركة جانبه الأيمن.

وما أن وجدته القوات المداهمة يلعب هذه اللعبة الحربية الخطيرة حتى تحفظت عليه وعلى جهاز الحاسوب وسألت عن أسطوانة اللعبة، فلم تجد ردًا.

هو الآن زميلي بالزنزانة في معتقل لا نعلم أسمه بعد، لكنه علمني درسًا هامًا، بمزاحه وروحه المرحة رغم التعذيب

والألم والمعاناة النفسية المهولة هنا، والدرس كان: بدلًا من أن نسقط في الاختبارات الصعبة، علينا النجاة.. النجاة!

انتهت

٢٠١٧/٦/٢٩

محمد الفارس